رحلة هدية — الى صحراء سورية الشمالية

رصافة هشام ورقة الرشيد

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

متى تردي الرُصافة تستريحي ... من التهجير ، والدَّبَرِ الدوامي !
الفرزدق

اذا الرقَّة البيضاء لاحت بروجها ... فدى كلّ عطارٍ بها امرٌ مريرِ !
الاخطل

على طريق الصحراء

ـــ الرصافة ؟ رصافة هشام ؟ سرجيوبوليس ؟

ـــ هي بعينها ، على نحو مائتي كيلومتر من حلب ، نكون فيها ضحى الغد ، اذا شئتم .

وشاء الله ان نشاء . فلبينا دعوة الاب بريفو اليسوعي ، مدير النادي الكاثوليكي في حلب ، وقمنا صباح ٢٨ نيسان الفائت ، تاركين الشهباء مطمئنةً الى نوم الصباح ، قاصدين الصحراء الشرقية ، مستيقظةً بما فيها من جماد ونبات وحيوان نحو اشعّة شمس الربيع تبخّر ما تناثر عليها من ندى الليل البارد .

السيّارة متينة من نوع « هدسون » ؛ والدواليب جديدة يرفدهـا ، عند الحاجة ، دولابان جاهزان على الجانبين ؛ وصفائح البنزين عديدة . والطعام وافر ؛ وكذلك الماء في صفيحة خاصة يعلوها قالب ثلج متلفّ بالخيش . فلا خوف من الانقطاع ، ان شاء الله . اما السائق فماهر ، رصين ، ناطق اذا انطقته ! واما الركاب فهم : الاب بريفو اليسوعي ، والاب ميليس البندكتي ، وشارل القرم ، وكاتب هذه السطور . اربعة متفقون في الآراء والنزعات لا كلَّ الاتفاق ،

مختلفون لا كلّ الاختلاف. فهم اذاً على افضل ما يكون من الحالات استعداداً لاثارة الابحاث في تلك المناطق التاريخية ، بل لتغذية المناقشات طول تلك الرحلة المترامية حتى الخمسمائة كيلومتر . واذا بموضوعات الثقافة المختلفة من تاريخ واجتماع وفنّ وادب وشعر تزدحم ازدحام الذكريات في تلك البطائح المتاوجة بتاوج النسيم ، الخافقة صعوداً وهبوطاً باضطراب السيارة على طريق لم تعبّد كلّها بعد .

هذه مجموعة من قوالب السكر ، بل من اقراص الكبّة ، تبدو في الافق البعيد ، غبراء اللون في ذاك المرج الاخضر . ثم تزحف نحونا شيئاً فشيئاً ، فتضخم اقراصها ، ويقرب لونها من الاصفرار المذهّب تحت اشعّة الشمس . واذا بها بيوت من الطين المجفّف تُقام — ولا نقول تُبنى — على ذاك الشكل المخروط ، لخلوّ السهول من الحجارة والخشب . هي قرية النيرب ، على ثمانية كيلومترات من حلب ، فيها محطة للطيران .

وهذه ، على خمسة عشر كيلومتراً ، قرية جبرين ، وعلى القرب منها تلّان ، الواحد الى الجنوب والآخر الى الشمال ، وهما من تلك التلول المتعدّدة في الصحارى والسهول ، كما في سهل البقاع ، والتي كانت ، على ما يظهر ، نقاطاً للمراقبة يُصعد اليها لكشف السهل ورصد حركات العدوّ .

وهناك تلّ آخر ، على خمسة وعشرين كيلومتراً ، يدعى تلّ الشربة . وقبالته ، الى اليمين ، قرية جب الصفا . ووراءها من ناحية الجنوب تمتدّ بحيرة جبُول المالحة او السَبْخة . وهي مصدر الملح جدير بالذكر ، لا ينقصه الّا ان يستغلّ بطريقة منظّمة .

ثم تتابعت السهول ترفد بعضها بعضاً ، لا نرى فيها الا تموّجات الزرع ، وقد اصفرّ في بعض المناطق حتى كدنا نسمع حفيف السنابل المثقلة ، بل انه يبشر حصاده في انحاء عديدة ؛ ولا يزال في غيرها اخضر يافعاً كأنه حديث العهد بالظهور . وهو ، كيف ما كان ، قويّ الساق ، مندفع الرأس ، يبشر بموسم صالح . ولم يمرّ علينا نصف ساعة في تلك الزروع حتى اشار المعلّم الى قرية جديدة اسمها دير حافر ، واذا هي لا تكاد تختلف عن النيرب الا بالاهمية

والسمة . امـا البيوت فهي هي من تلك القوالب المعهودة . على ان في الدير عدة دكاكين فيها بعض الحاجات الضرورية ومن جملتها البنزين وزيت السيارات . والى شماليها وجنوبيها التلان المعهودان كذلك .

وبعد ان ادركنا قرية عرب ، على ٧٦ كيلومترًا من الشهباء ، اخذنا فنحدر شيئاً فشيئاً نحو وادي الفرات . ولم نلبث ان شاهدنا ، بل تصوّرنا عن بعـد ، تلك المنعرجات الفسيحة ، والدورات البطيئة ، الذي يزوّر فيها الفرات « مُسْتَحْنِفِرًا من جبال الروم » ، على قول الاخطل . بيد ان ذلك الاستحنفار لم يكن قويًا لان الجبال بعيدة عنا ، ولا يذكّرنا بها الا مرتفعات كلسية على يمين الطريق ، متجهة جنوباً بغرب ، مستقبلةً اشعة الشمس في تماريجها المتنوّعة الالوان الى البياض الأزهر ، مقلقلةً اياها حتى حناياهـا المقوّسة ، وقد اخذت امواج النهر من حروفها في سالف الاحقاب عهدًا كان يمرّ عند اقدامها . اما اليوم فانه يبعد نحو كيلومترين عن الطريق الى الشرق . وها اننا نراه بجلاله البطيء ، ينتقل على مهل من يمين المجرى الى يساره على مسافة قـد تبلغ الخمسمائة متر ، فيطوّق الحنايا والمنعرجات ، ويجرف تراب الضفتين ، مغالباً تلك الشجيرات المرتجفـة بالقرب منه ، جارفاً « ركاماً من الينبوت والخضد » ؛ حتى يصادف عقبة مسكنه الواقعة في تلك المرتفعات الكلسية ، فينحرف عنها نحو الكيلومتر متغلغـلًا في الاكانيف . ومسكنة قرية على مائة كيلومتر من حلب ، فيها مخفر للدرك ، وبها تنتهي الطريق المعبّدة ؛ فيضطرّ المسافرون الى السير في مجاز لا بأس به ، يبلغ الى نحو مائة كيلومتر قبل دير الزور ، فيتصل بطريق جديدة .

وعلى خمسة كيلومترات من مسكنة ، تقع على تلّ الى يمين الطريق ، اسكي مسكنة او مسكنة القديمة ، وهي خرائب مدينة بالس البعيدة الذكر في الحروب المتتابعة بين العرب والروم على عهد الحمدانيين خاصة .

بالس

عُرفت بالس منذ العصور القديمة . وكان اسمها برباليسوس ، وهو آرامي الاصل تحرّف في ما بعد ، فصـار بالس . وقد نالت شهرتها لحسن موقعها على

الفرات الذي كان يمرّ امامها ، فكانت مرفأً مهماً تنزل فيها القوافل الذاهبة من الشام الى العراق ، فتترك الطريق البرية سائرة بطريق النهر . وترسي فيها السفن الآتية من العراق ، فتفرغ بضائعها لتنقلها القوافل بطريق البر . فهي اول مدن الشام من جهة العراق ، تقع على حدّ جغرافي مهمّ ، وعلى حدّ مناخيّ مهم كذلك ، لانّ رطوبة الفرات تخفف فيها وطأة المناخ الجافّ المتصفة به صحراء حلب القاحلة . ولهذا غدا في نباتها وفي حيوانها ميزات متعدّدة تفصلها عن نبات بادية حلب وحيوانها .

وقد تعاقبت عليها الدول منذ القدم ، ونالت نصيبها من النزوات والاكتساحات ، فخربها كسرى انوشروان نحو السنة ٥٤٠ ، على قول بروكوپ ؛ فأعاد بناءها يوستنيانوس . ولا يزال من آثاره فيها بقايا ساحة ، واطلال برج .

وفي اوائل الفتح العربي ، دخلها المسلمون . وما زالت تنتقل من سلطان الى سلطان حتى ملكها الحمدانيون ، اصحاب حلب ، فاستفاد سيف الدولة من موقعها التجاري ، ففرض الضرائب والمكوس على القوافل القادمة من العراق والذاهبة اليه . ووكل بجبايتها قاضيه ابا حصين الرقّي ، وهو مشهور بالخبث والدهاء والتزلف لسيف الدولة ، حتى انه كان يبرّر ما يأتيه الامير من ضروب الجور على الرعية ، فيريح ضميره ، ويحلّل له الحرام . ذكره المؤرخ كمال الدين ، فقال : « وكان ظالماً ، فكان اذا مات انسان اخذ تركته لسيف الدولة ، وقال : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك ، وعلى ابي حصين الدرك . » هذا القاضي انفذه سيف الدولة الى بالس ، وفيها التجار معتقلون عن السفر بسبب الحروب بين الامير الحمداني والاخشيد ، فأخذ ابو حصين يرهقهم بالضرائب حتى ابتزّ منهم ، على قول ابن حوقل ، في دفعتين ، بينها شهور قلائل وايام يسيرة ، الف الف دينار . » ومهما يكن من المبالغة في الرقم ، فان الحادثة تدلّ على ازدهار المدينة الاقتصادي .

وكان ينزل بواديها قبائل بني كلاب . وكثيراً ما ثاروا على سيف الدولة . حتى اضطر مرّة الى السير عليهم بنفسه ، فاوقع بهم ، وسبى حريمهم . ثم اشفق عليهم فعفا عن الاسرى ، وردّ الحريم ، سنة ٩٥٤ ، وكان المتنبي معه في تلك الغزوة ، فقال قصيدته التي مطلعها :

بنفيرك، راعيا، عبث الذئاب! وغيرك، صارماً، ثلم الضراب!

وفي السنة ١١١١ وقعت بالس في ايدي الصليبيين، اصحاب امارة الرها. وقد زارها السائح بنيامين التوديلي سنة ١١٦٣. على ان المسلمين لم يلبثوا ان استعادوها، فشيد فيها الملك العادل ابو بكر الايوبي منارةً مثمنة الاضلاع، مربعة القاعدة، زيّنها بالنقوش والرقم الكوفية، وهي لا تزال قائمة الى اليوم، ولم ينل الخراب الا قسمها الاعلى. ويبلغ ارتفاعها ٢٢ متراً، يُصعد اليها بـ١٠٧ درجات. اما مادتها البنائية فالآجر المصفر. وفي المدينة اطلال الجامع وبقايا كثير من البيوت العربية المبنية كلها بالآجر او اللبن المراقية كالمنارة الراقية الى اواخر القرن الثاني عشر، او اوائل الثالث عشر.

بيد ان الفرات، وهو السبب الاصلي في ازدهار تلك المدينة، اخذ ينحرف عنها منحدراً الى الغرب في ذاك السهل الفسيح، حتى اصبح في ايام ياقوت الرومي († ١١٢٩)، على بعد اربعة اميال، او ثمانية كيلومترات. اما اليوم فقد اقترب النهر الى نحو ثلاثة كيلومترات. ولعله يعود؛ فيعود الى تلك النقطة ازدهارها السابق. وقد اجهز عليها، بعد ابتعاد النهر، اكتساحات المغول فخربها جنكيز خان سنة ١٢٦٠.

في بطائح الفرات

ولم تكد تغيب عنا خرائب بالس ومنارتها الشامخة، حتى اخذنا نقترب من الفرات شيئاً فشيئاً الى ان ادركنا تلك المرتفعات فصعدناها في عقبة تدعى دبسة، ولعلها، كما يقول اصحاب «الدليل الازرق»، هي «تِفْساح»، اي المعبر، المذكورة في الكتاب المقدس (سفر الملوك الثالث ٤: ٢٤)، او لعلها تپساك التي ذكرها اسطرابون فقال ان الاسكندر قطع الفرات عندها فانزل فيه سفنه، وكان قد حملها مفككة من آسية الصغرى. ومن اعالي تلك البقعة منظر فريد على منعرجات النهر المتتابعة، وتلك السهول المترامية الاطراف حتى الافق البعيد، لا ينقصها الا مشروع ينظّم طريقة الريّ فيها، فتغرق سورية بمواردها الخصبة. هذا ما كنا نفكر فيه، ونحن نرمي الانظار الكئيبة على

الارض الخصبة القريبة ، وعلى الماء المتدفق حياةً ونشاطاً ، وليس من يستفيد من ذاك الخصب ، ولا من تلك الحياة .

وقد شاهدنا في تلك البطائح مجموعة عجيبة من النباتات المتنوّعة ، القويّة الروائح ، كنا نجد بينها كثيراً من حجارة الظرّان المصنوعة . وليس الظرّان من حجارة تلك المنطقة ؛ فلا شك ، والحالة هذه ، ان تكون هناك احدى المحطات الظرّانية قصدها فريق من سكان المغاور الأوّلين ، فنزلوا ضفة الفرات يصيدون وحش الصحراء وحيوان الماء . ومهما يكن من أمر فاننا ندلّ علماء العصور السابقة للتاريخ على تلك المحطة ، لعلهم يجدون في ثنايا ترابها ما يفيدهم ويفيد التاريخ .

ويظلّ مجاز السيارات — ولا نقول الطريق — بعيداً عن الفرات حتى يصل الى ابي حريرة ، على ١٢٨ كيلومتراً من حلب . وابو حريرة قرية شركسية فيها مخفر للدرك . وقربها مورد من الفرات تقصده الرعاة بابلها واغنامها وبقرها . اما اصل القرية فلا نعرف عنه شيئاً ، ولا عن ابي حريرة المدعوّة به . ولعلّ اللفظة تصحيف آلالي او هراري ، وهو اسم قرية قديمة كانت في تلك المنطقة ، فحُوّل الى ابي حريرة . ثم رُزق ابو حريرة هذا — المتجشّم رجلاً — ثلاث بنات أشير الى قبورهنّ بثلاثة ابراج خربة واقعة جنوبي القرية ، في مرتفع يشرف على سهول صفين .

صفين

وما اشرفنا على هذه السهول حتى تمثلنا تلك المعركة الحاسمة في تاريخ الاسلام الاول . وقد احتشدت جيوش معاوية على الفرات ، وقابلتها جيوش علي مما يلي ذاك المرتفع . وفهمنا ما يرويه المؤرخون من أن جيش معاوية امتلك الماء اولاً على جيش علي ، لانه كان اقرب الى الفرات . على ان مركز جيش علي كان امنع دون شك ، وهو اقرب الى المرتفع المطلّ على السهل . وما هي الّا لمحة شاملة ، واذا بذاك المرج الفسيح تحييه التذكارات ، فيأهل بالجيوش الصاخبة ؛ واذا بليلة الهرير (٢٨ تموز ٦٥٧) يحمل فيها الأشتر فيزعزع جيوش

الشام عن مراكزها ؛ واذا بالمصاحف ترفع على رؤوس الحراب في جيش معاوية ؛ واذا بعلي يسقط في يده فيتضعضع جيشه.

واذا بالامويين يقرّون ملكهم على دعائم القوة ، والحلم ، والكرم ، والحق الالهي ، يؤيدهم الاخطل ، وهو اعظم صحافي ذاك العصر ، بقوله السائر :

ويومَ صفّينَ ، والابصارُ خاشعةٌ ، أمدّهم، اذ دعوا ، من ربّهم مددُ !

واذا بالاسلام وقد حار مدة بين المفرقين ، يتجه اتجاهاً نهائياً جهة الشام فجهةَ المدنيّة الغربية ، صادفاً عن جزيرة العرب ، وعن العراق ، ملقياً بمقدّراته في ايدي السوريين ، فيخدمونه بخدمتهم تلك الدولة العربية الأعرابية حتى يجعلوا منها امبراطورية هائلة تبلغ فتوحاتها قلب اوربة ، ومجاهل آسية الوسطى ، وتهدّد بيزنطية برّاً وبحرًا ، ناشرةً مآثر العنصر العربي حتى عهد العباسيين ؛ فتتفرّس الخلافة ، وتصبح الدولة « اعجمية خراسانية » ، على حدّ قول الجاحظ . وليس من شك في انه ، لولا معركة صفين ، بل لو كان الانتصار فيها لعلي ، لكان الاسلام اتجه نحو الشرق منحصرًا في العراق والحجاز ، متجاوزًا الى فارس ، منصرفاً، في كل حال، عن الشام، وعن البحر ، وعما وراء البحر من مدنية وعمران.

ولكن ما لنا ولهذه الاعتبارات والفرضيات، وقد مرّ على المعركة ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً ولا يزال اكثر مؤرّخي المسلمين ، اذا ذكروها ، فكأنهم يذكرون احدى المعارك الحالية ، فتندفع بهم الحماسة ولا يتمالكون الانحياز ، ظاهرًا او ضمناً ، بعضهم الى معاوية ، واكثرهم الى علي .

وقد كان من نصيب صفين ، وهي الواقعة على ممر الجيوش من العراق الى الشام ، ان تشاهد معارك عديدة ، فتشرب دماء كثيرة . وكان اشهر تلك المعارك وقعة بين سيف الدولة والاخشيد لم يُشر اليها المؤرخون ، ولكنها معروفة بابيات للمتنبي . كان سيف الدولة قادماً من العراق ، والاخشيد من الشام ، فثلا دور علي ومعاوية . الا ان الانتصار كان بجانب سيف الدولة ، وهو العلويّ المجاهر بعلويته ، فأثأر لامامه . واستغلّ المتنبي هذه السانحة ، كما استغلّ اسم سيف الدولة وهو سميّ الخليفة الرابع ، فقال :

يا سيفَ دولةِ ذي الجلال ، ومَن له خيرُ الخلائق والأنام سميُّ ،
أوَ ما ترى صِفّين كيف أتيتَها ، فانجاب عنها العسكرُ الغربيُّ !
فكأنّه جيش ابن حرب رعتَهُ : حتى كأنك ، يا عليُّ ، عَليُّ !

ومن اعالي صفين يطلّ الناظر على ضفة الفرات اليسرى فيرى قلعة فخمة ، فسيحة الرقعة ، ضخمة الاسوار تعلو نشزًا صخرياً تخططه طبقات الحجر الكلسية ، هي قلعة جعبر المشهورة ، لها ذكر مستفيض على عهد الاتابك زنكي ، والد نور الدين ، وقد نُسب الى هذا بناية القسم الاكبر من سورها وابراجها . والى غربي القلعة ، على نحو كيلومترين منها ، يرى الناظر مشهدًا صغيرًا يشير الى قبر سليمان شاه ، احد امراء العثمانيين ، وقد غرق في الفرات في ذاك الموضع . وكان من نصيب تركية الجديدة ان أعطيت هذا القبر ، ونالت الحق ، وفقاً لماهدة انكرة ، بان تبقي فيه حامية قليلة العدد من العسكر التركي ؛ وهو من غرائب تلك المعاهدة .

ولنعد الى الطريق العام او الى المجاز ، فانه يؤدي الى مرتفعات ينحدر منها الى تلّ القدين ، فالى السَّبخة ، فالى كراكول الحام . وعند السبخة يتفرَّع المجاز الآخذ جنوباً في صحراء الرصافة ، مقصدنا ذاك الصباح .

ولأمرٍ ما اسرع السوّاق في الاخذ جنوباً غيرَ منتظر مفرق السبخة ، ولا راغب في الاطلاع على المَلَم الهادي .

في مجاهل القفر

ولم يقطع نحو العشرين كيلومترًا حتى ضاعت معالم المجاز . ولم يبقَ امامنا الّا القفر الصامت، الاجرد « كظهر الترس » ، كما يقول شعراء البدو . وليس ادعى لفهم الشعر الجاهلي ، وتذوّق تلك الاستعارات الصحراويّة ، من السفر في قفار لا يكدّر صفاء آفاقها الفسيحة الّا السراب المضطرب في الهاجرة ، واشباح الابل تتضخم وتتضاءل على المرتفعات السحيقة ، وقد عارضتها اشعة شمس الاصيل فغلّفتها بذرور الالوان المذهبة .

اخذ النهار يرتفع شيئاً فشيئاً،واخذ الهواء يلفح فاترًا فحارًّا،ومرجل السيارة يوالي الأزيز لاهثاً ، والريح تداعب خروق الغطاء المدني ، فتشارك ذاك الازيز

بانينها الصافر ، وكأنّ عزيف الجنّ يعصف فينا انّى اتجهنا في تلك المفاوز المهلكة . ولا دليل لنا الّا الخارطة تتناوبها اصابعنا،تفتّش فيها بشيء من القلق والايجاس عن اطلال الرصافة ، ولا مرشد الّا الابرة المنطيسية تضطرب راقصة باضطراب ابصارنا ، ولا تهدأ مشيرةً الى الشمال الّا اذا اوقفنا السيارة .

هناك الى اليمين أشباح سوداء تتمشى ، وكأنها تقترب منا ؛ فلنسهّل عليها السير ، ولنقصر المسافة . واذا بالسائق يدير المقود نحوها ، ويطير على غير هدى ، وقد أمن المعاثر والدقبات والدورات في ذاك السهل الاملس . واذا بها تتراجع وتتمايل حتى تتلاشى ، فلا نستفيد منها الا رؤية السراب ، والكلام عنه كلام شاهد عيان .

— وهذا الغبار المتصاعد الى اليسار ؟ فلنقصده فلا بدّ من ان يدلّ على شيء .

— هو سراب ! وقد سئمنا مطاردة السراب !

— أوَ يُثير السرابُ غبارًا ؟ سِر نحوه ، يا كْرتيك.

ويسير كْرتيك — وهو اسم السائق — صامتاً ، فيدخل الغبار ؛ واذا وراءه غزلان برش ، لا تطالعنا الا بدوائر بيض ترفرف فوقها اذنابها القصيرة ، وكأنها تهزأ بنا وبسيّارتنا ، فتجدّ كلّما جدّت ، وتتصاغر تلك الدوائر كلما اتسع بيننا وبينها المجال .

— وتلك الحيوانات المتراكضة في الافق الجنوبي ؟ لا شك انها اكبر من الغزلان ، واكثر حركة من مولّدات السراب ! فلنقترب منها .

واذا بالوهم ينجلي عن جمال تتداعب في تلك الرمال ! وألطفْ بمداعبة الجمال أنساً وسلوى ، على ان يكون عندها راعٍ او راعية يفيدنا شيئاً عن طريق الرصافة .

وكأنّ صوت السيّارة نشر الذعر في ذاك السرب المطمئن الى الراحة ، فثار بكامله ، وهو يبلغ المئات ، فشالت الاذناب ، وترجرجت الارداف ، واضطربت الاسنمة ، وتهادت الرؤوس بين الصعود والهبوط «كسكان بوصي بدجلة مصعد» . هي ناقة طرفة تحيا امامنا بتلك النياق الضخمة المكتنزة اللحوم ، لا بهذه الابل

الهزيلة التي زاها تتجرّر على الطرق المعبّدة ؛ وهي الفصلان تتلاعب لاهيةً عن كل شيء في تلك الآفاق الفسيحة المتتابعة على منظر واحد ، بل هي شاعرية العرب نفسها تنبعث في ذاك الاطار الطبيعي الوحيد فتأنس بحيوانه القليل ، ونباته الهزيل ، وتكتفي بتصوير ما تراه . فتتذوّق فتها الدقيق ، وتشعر بشعورها الفرد ، وتجري مع خيالها المحدود ، وتفهم اسباب قصورها عن التنوّع ، فتخفّف من حملاتنا على اصحابها لانهم لم يصوّروا ما لم يروا . هذه الابل انس البدوي ، والهام الشاعر . ولكن هل من ورائها بشر نميل اليه فنسأله عن مقرّنا من تلك الصحراء ؟ هي بدوية وحيدة تستظلّ ظلّ ناقة ساكنة ، كما كان يفعل هلال في إبله . ملنا اليها فسلّمنا ، فردت بلسان جدّ بعيد عن عربيتنا حتى الفصحى . وسألناها عن الرصافة . فاجابت ناظرة الينا بشيء من الاستغراب يساوره شيء من القلق :

ـــ الرصافة ؟ هي بعيدة ، بعيدة . لقد تركناها منذ ثلاث ليال.

ثلاث ليال للماشي وراء الابل لا تمثّل شيئاً مهماً للسائر في سيارة متينة.

ـــ ولكن ما لنا وللبعد . الى ايّ جهة تقع الرصافة وحسبنا ؟

فاشارت بيدها اشارة غامضة تلتفّ وتستدير حتى تكاد تشير الى كل النواحي معاً .

فودّعناها ، واتجهنا الى احدى تلك النواحي ، ولا تزال ذكريات الابل تحتلّ مخيلتنا . وكأن تلك الصلة الطبيعية بينها وبين القفر اتصلت بنا ، فندونا لا نرى الصحراء الا من خلالها ، ولا نأمل بالوصول الى الرصافة الا على غواربها. أوَ لم يصل اليها ، على هذه الطريقة ، مئات الالوف من البشر مدة القرون العديدة ؟ أوَ لا نرى الآن آثار اخفاف الابل في الاماكن الوطيئة اثر المطر الاخير تهدينا في اتجاهنا كما هدت الاجيال المتتابعة من رجال سنحاريب الى رعاة يهوذا ، الى حماة البيزنطيين ، الى زوّار مار سرجيس ، الى شعراء هشام. كما هدت الفرزدق يقطع الايام والاسابيع من مدن العراق ، لا يؤنسه الا الناقة ، ولا يشجعه على مواصلة السير الا الامل ببلوغ الرصافة وبنوال هشام بن عبد الملك ، حتى اذا ما لغبت ناقته وتلفّتت ضجرة ، مستكشفة الافق البعيد ،

خاطبها مُخاطبةَ الرفيق، ومنّاها بقرب الراحة وحضور الغنم ، متى وردت الرصافة:

إلامَ تَلَفّتين ، وأنتِ تحتي ، وخيرُ الناسِ كلهم أمامي ؟
متى تردي الرُصافة تستريحي من التهجير ، والدَّبَرِ الدوامي ؛
وتُلقي الرحل عنك ، وتستنيخي بخيث الله والملك الهمام !

فيسمعه جرير ، وجرير منصت لكل ما يقول الفرزدق لينقضه عليه . ولعلّه كان يغبطه لمقامه من هشام في الرصافة ، فيردّ قائلاً:

تلَفَّتُ أنّها تحتَ ابن قين حليفِ الكير والناسِ الكهام؛
متى تردِ الرصافةَ تخزَ فيها ، كخزيك في المواسم ، كل عام.

بيد اننا لا نأمل الخزي في ورودنا تلك المدينة ، التي تحمّلنا المشاقّ كلها في الوصول اليها.

واذا بنا نلتفت فجأةً ، وسط القفر الاغبر المحمرّ الى بقعة سوداء لمّاعة في اشعة الشمس(الرسم ١)، فتعترينا الدهشة مدة ثوان، ثم نصيح كل فم واحد : الرصافة !

الرصافة

تاريخها

ورد ذكر الرصافة في النصوص الاشورية ، وفي سفر الملوك الرابع من الكتاب المقدس . وقد جاء اسمها فيه بصيغة « راصف » . فذكر ان ملك اشور بعث رسلاً الى عدوّه حزقيا ، ملك يهوذا ، يهدّدونه قائلين: « ... فانك قد سمعت كل ما صنع ملوك اشور بجميع البلدان وكيف دمّروها أفأنت تنجو ؟ ألعلّ الامم التي اهلكتها آبائي انقذتها آلهتها كجوزان ، وحاران ، وراصف ، وابناء عادان الذين في تلاسّار ؟ »[1].

ثم تحوّل اسمها من راصف الى راسابه ، فالى الرصافة او الرصافا . وقد دعيت ، بعد القرن الرابع ، سرجيوبوليس اي مدينة سرج او سرجيس نسبة الى القديس سرجيس الذي استشهد فيها نحو السنة ٣٠٥، على عهد ديوقلتيانوس، ودُفن هناك . فأقيم دير على قبره ، وكثرت العجائب على ضريحه ، فانتشرت

---

١) سفر الملوك الرابع ١٩ : ١١-١٢

مظاهر تكريمه في تلك الانحاء حتى دعيت المدينة باسمه . وقد فصّل المؤرخون سيرة حياته . ومن اقدم ما ورد في ذلك اقوال السريان ، واقدم هؤلاء يعقوب السروجي ، اسقف سروج ، المتوفى سنة ٥٢١ . فقد انشأ ميمرًا في الثناء على سرجيس وباخوس قال فيه مخاطباً سرجيس : « انت معقل وطننا ، وبك يأوذ صقعنا كله » ، مشيرًا الى ان القديس اصبح ، منذ ذاك العهد ، شفيع القسم الاكبر من سكان سورية الشمالية الشرقية ، بل من سكان اعالي الجزيرة . ثم لمح يعقوب السروجي الى العجائب التي كانت تجري ، في عهده ، على ضريح الشهيد[1] . وفي سيرة للقديس ، مخطوطة نسختها الراقية الى القرن الثاني عشر في لندن ، « ان الدوق انطيوخس غادر قرية بالس مستصحباً سرجيس الى قرية شورا ، وهناك حاكمه وعذبه . ثم طرده الى قرية مجدل الماء البعيدة ستة اميال عن شورا . ومن شورا مضوا به الى الرصافا وهي تبعد عن المجدل تسعة اميال ايضاً . وهناك امر بقطع هامته بحضور جمهور من المسيحيين . وحاول اهل شورا ان يسرقوا جثانه فقاومهم الرصافيون . ثم اجتمع خمسة عشر اسقفاً واحتفلوا بتدشين كنيسة ضمن الرصافا وضعوا فيها الجثمان . »[2]

وقد كان للغساسنة ، وللتغلبيين خاصة ، فضل في نشر تكريم الشهيد ، وفي دفع القبائل الى زيارة ضريحه ،حتى اصبحت كنيسة مار سرجيس في الرصافة من اشهر المزارات . ومن الدلائل على هذا ان قانون الايمان الذي ارسله اساقفة بلاد العرب الى يعقوب البرادعي يحمل تواقيع خمسة عشر منهم يدعون باسم « سرجيوس » ، بل ان احدهم يدعى « سرجون »[3] . وهي صيغة سريانية اضيف فيها الى سرج (وهذه سريانية الاصل معناها النور ، الضوء ، السراج) علامة التصغير « أون » ، فكأننا قلنا سرج الصغير ، او سرج الاصغر[4] . وتذكر

١) اخبار الشهداء القديسين (طبعة بيجان) ٦ : ٦٥٩

٢) اخبار الشهداء القديسين (طبعة بيجان) ٣ : ٢٨٣ و٣٢٤

٣) اطلب في ذلك اعمال مؤتمر المستشرقين الحادي عشر : القسم الرابع ، الصفحة ١١٧

٤) وقد اشتهر في دمشق ، في اواخر القرن السادس والقرن السابع ، آل « سرجون » ، نبغ منهم خاصة منصور بن سرجون ، مدبر المالية ، على عهد معاوية . ومن سلالته ظهر القديس يوحنا الدمشقي .

الوثيقة نفسها عدة ديورة على اسم مار سرجيس . ومن ذلك ان المنذر الغساني بعد ان ثار مدة على بيزنطية ، لم يشأ توقيع عهد الصلح الّا بالقرب من ضريح القديس المذكور[١]. ولما ملك النعمان بن الحرث بن الايهم ، وهو من الغساسنة مكرمي الشهيد ، اصلح صهاريج الرصافة ، وصنع صهريجها الاعظم ، في قول ياقوت[٢] . وقد ظلّ العرب يكرمون سرجيس مدة القرون العديدة . وهذا الاخطل يشيد بذكره ويصرّح بانه شفيع قومه التغلبيين ، وبانهم يحملون رايته، الى جنب الصليب ، في حروبهم ، حتى في تلك التي نصروا فيها الامويين على اعدائهم من آل علي وابناء الزبير ، فدخلوا المدينة ، وحاصروا الكعبة . يقول الشاعر النصراني :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومار سرجيس ، وسمًّا ناقعا ،
وابصروا راياتنا لوامعا ، خلّوا لنا راذان ، والمزارعا .

فيردّ عليه جرير ، ولا تقلّ شهادته عن شهادة الاخطل في تأييد اتخاذ التغلبيين مار سرجيس شفيعاً لهم :

أبالصليب ومار سرجس تتّقي شهباء ذات مناكب جمهورا ؟ .

ويقول ايضاً عن التغلبيين :

يستنصرون بمار سرجس وابنه ، بعد الصليب ، وما لهم من ناصر !

ذاك ان التغلبيين خاصة ، وسكان الرصافة عامة ، ظلوا على نصرانيتهم بعد الاسلام ، كما يشهد بذلك مؤرخو العرب المسلمون ، ومؤرخو السريان النصارى ، وكما تدلّ عليه الاطلال الباقية الى اليوم . وقد كتب موسى بركيفا ، اسقف الموصل ، المتوفى سنة ٩٠٣ : « لما بلغوا بسرجيس الى الحصن امر الحاكم فقطع رأسه . والى اليوم (اي الى عهد الكاتب من القرن التاسع) يكرم دير الرصافة رفات القديس . »[٣] ونقل ياقوت عن ابن بطلان في رحلته سنة ٤٤٠ للهجرة (١٠٤٨ م) وصف كنيسة مار سرجيس في الرصافة وزاد ان سكانها « بادية اكثرهم نصارى . »[٤]

١) Lammens, *Etudes omayyades*, p. 239

٢) ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ٣ : ٧٨٤.

٣) اخبار الشهداء القديسين ٣ : ٢٨٣ . ٤) ياقوت : الكتاب المذكور ٢ : ٧٨٥.

وقد اولى امبراطرة البيزنطيين الرصافة عناية وافرة منذ اواسط القرن الرابع . وزادت مظاهر عنايتهم عصراً فعصراً بازدياد الاقبال على مزار مار سرجيس . حتى رقي العرش الامبراطور انسطاس (٤٩١—٥١٨) ، فاقام فيها الكنيسة الكبرى ، ومن الراجح ان يكون هو الذي شيَّد اسوارها الضخمة ، وبنى فيها تلك الصهاريج العميقة ، ووضع فيها حامية قوية . الّا انه غيَّر اسمها فدعاها باسمه انسطاسيوپوليس .

وفي القرن السادس ، هجم عليها كسرى الاول في غزوته على سورية الشمالية ، فاخرب قسماً منها ، ولكنه لم يتمكن من الوصول الى بيت المال . فرمّم ما خرب منها الامبراطور موريقي نحو سنة ٥٩٦ . على ان كسرى الثاني نال ما لم يناله جدّه ، فدخلها سنة ٦١٦ ، ناهباً مخرباً .

وعلى هذه الحالة وجدها العرب ، على الارجح . فلم يهتموا بها الّا هشام بن عبد الملك (٧٢٤—٧٤٣) . فلما وقع الطاعون في دمشق ونواحيها اتجه الخليفة الى الرصافة فرمم اسوارها ، واصلح صهاريجها واقام فيها مدة . فدعاها العرب « رصافة هشام » . وقد ازدهرت على عهده ازدهاراً عجيباً فكثر عدد سكانها ، وراجت اسواقها ، واخذ الناس يقصدون اليها من انحاء الشام والعراق بل من اطراف جزيرة العرب نفسها .

اما العباسيون فقد صرفوا عنها انظارهم ، شأنهم في سائر المدن السورية . فتضاءلت اهميتها حتى دخلها السلطان بيبرس (١٢٦٠—١٢٧٧) فجلا عنها اهلها ، ووزعهم بين حماه وسلمية . فخربت وظلت عرضة لمناهب البدو ، وعوامل الطبيعة .

اطلالها

ولم يبقَ منها الا تلك الاطلال الفخمة النابتة دفعةً واحدة في صحراء ملساء لا حجر فيها ولا شجر . وقفنا امامها خاشعين ، وقد امتلكتنا الدهشة أن يكون بشر نقلوا هذه المدينة كاملةً من احد الاقطار المسكونة ، فعمروا بها ذاك القفر الموحش . وما الحكمة من اقامتها في بقعة قاحلة لا نهر يرويها ولا عين ماء ، بل لا مقلع حجارة تُتخذ منه موادّ البنيان ؟

الرسم ١ – منظر عامّ لمراتب الرصافة

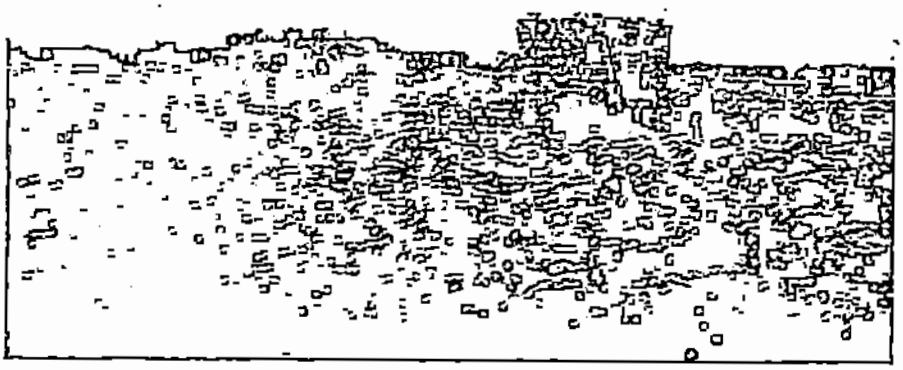

الرسم ٢

منظر عامّ تبدو فيه اطلال المبنى المسدس الاضلاع (الى اليمين) فاطلال الكاتدرائية الى اليسار

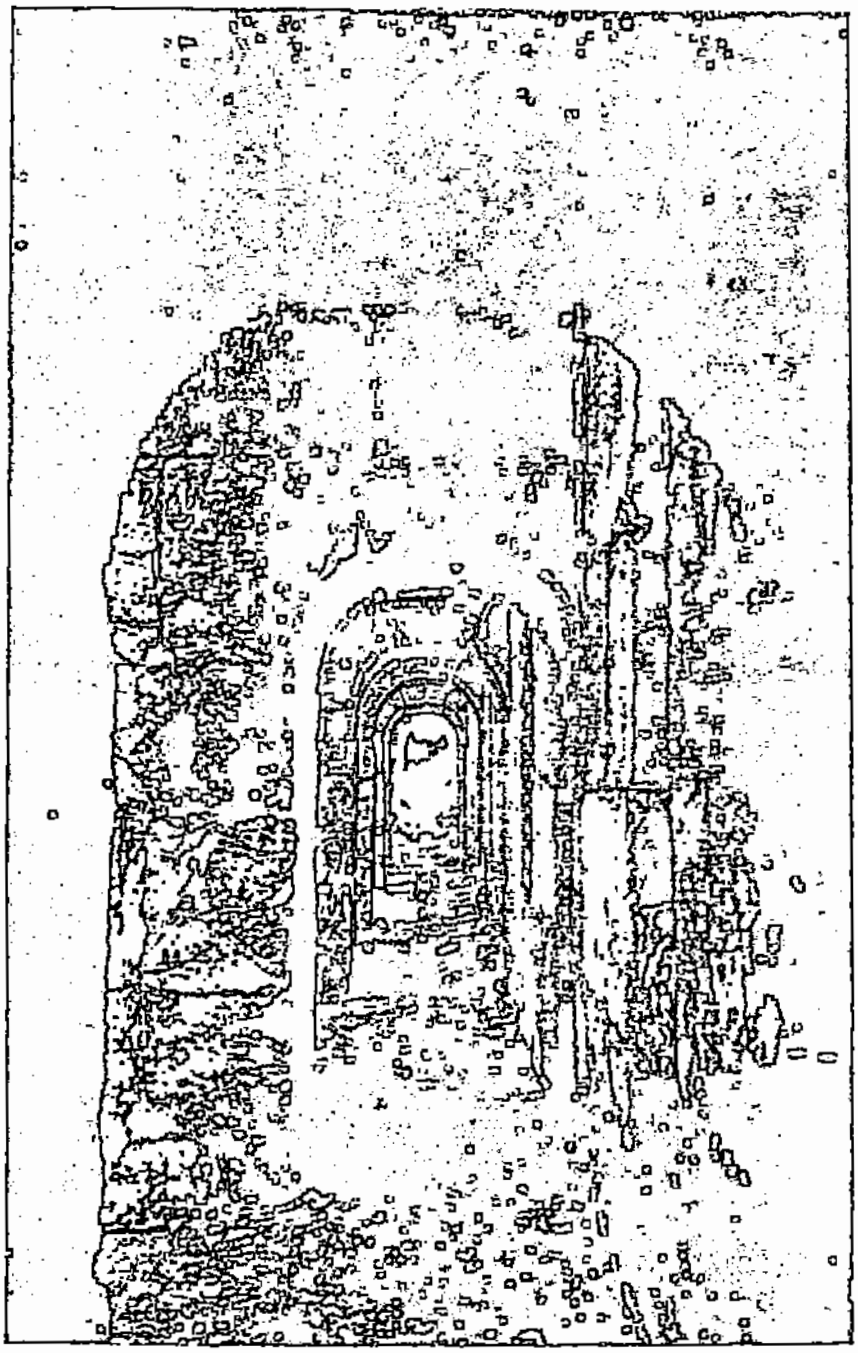

الرسم ٣ – الممرّ المفرد داخل الاسوار

هذا بعض ما جال في فكرنا، ونحن ذاهلون، لدى تلك الزخارف العجيبة؛ وهو بعض ما جال في فكر غيرنا من الذين زاروها قبلنا، وهم قلائل، فتساءلوا عن سبب انشائها في ذاك القفر، واجتهدوا في شرح ذلك بموقعها الجغرافي، وبكونها محطة مهمة للقوافل التجارية. وكان من اسم « الرصافة » شاهدٌ لبعضهم على موقعها والغاية منها، فانتبه الاثري كلرمون كانو الى مادّة ذاك الاسم من « الرصف »، و« الرصيف »، والطريق « المرصوفة »؛ واذا به يلفت نظر العلماء الى العلاقة بين هذه المحطة والطريق الرومانية « المرصوفة » الآخذة من الفرات الى البحر مارّة بتدمر[1].

هذه الشمس ترتفع حتى تقارب السمت، يسيل لعابها على زوايا الاطلال فتموّج لمعانها، وتنحدر اشعّتها عموديةً على اعالي السور فتنفض عنه الغبار، وتتسلّل من منافذه وخرجاته وشقوقه، محرقةً ما تجرّأ على الظهور من عشب ضئيل، منيرة الوان تلك الحجارة الضخمة فتنقلب بين الاسود اللامع والابيض الكدر. هي بيضاء في اصلها، رخامية الملمس، من نوع الجبس المنفصل الى رقائق مستطيلة شفّافة، ولكنها كدراء فسوداء تحت الغبار المتراكم، والرمال الثائرة، والانوار الوهّاجة. ولعلّ من عجائب تلك المدينة، بل اولى عجائبها ان تكون باسوارها وهياكلها وبيوتها وصهاريجها مبنيّة كلها بهذا النوع من الحجر الزخرفي الضعيف المكسر، القويّ على مقاومة الايام. يبدو الصخر منه اسود لماعاً عليه غلاف من الغبار الكثيف، حتى اذا دنا منه الانسان، واخذ طرفه بحدّ سكينه او بين ظفريه، تساقطت منه قطعة بيضاء تنقسم الى ما لا نهاية له من الصفائح الرقيقة المستطيلة. والعجب في ذلك كله ان يكون الفنانون قد توصّلوا الى حفر تلك الزخارف الدقيقة المتنوّعة في هذا الحجر الليّن الذي يكاد يتهافت تحت اصابع المتلمّس. فما كان اصبرهم، وما أدقّ ما كانت عليه ادواتهم!

---

(1) Clermont-Ganneau, *Recueil d'archéologie orientale*, IV, 112-113

وقد وصف اطلال الرصافة قليل من العلماء قد لا يتجاوز عددهم الثلاثة او الاربعة من الذين امكنهم الوصول اليها، واشهرهم: H. Spanner et S. Guyer. *Rusafa*, Berlin, 1926

درنا حول السور المربع المستطيل على نحو ٥٠٠ متر جنوباً بشمال ، و٣٠٠ متر شرقاً بغرب ، وشاهدنا موقع ابوابه الاربعة، حتى دعانا الباب الشمال ، وهو افضلها حالة، فوقفنا عنده نتأمل تلك الهندسة السورية القديمة ، وقد أثّرت فيها بعضَ الاثر عناصر الجزيرة العليا في القرنين السادس والسابع للمسيح.

هي هندستنا الوطنية التي رفعنا امثلتها في الكنائس العديدة المنتشرة من حوران حتى حلب، ومن البحر المتوسط حتى مجاهل الصحراء ، ولاسيما في تلك « المدن الماتتة » في شمال سورية التي احياها الاب ماترن بفنه وعلمه[1] ، ودرس بعض روائعها البنائية والزخرفية الاستاذ لاسوس في سلسلة من الابحاث النفيسة . هي تلك الهندسة الممتازة بالتناسق في النسب والاقسام ، والفنّ في الزخرف ، والرشاقة في الصنعة التي قادتنا الى فرض احترامنا على علماء الفنّ المتأخرين فأمكنهم ان يعتبروا، على قول لاسوس،« ان الفنّ الاصلي في سورية الاسلامية ، ذاك الفن الذي ولد الرائعتين الشهيرتين : قبة الصخرة في اورشليم والجامع الاموي في دمشق ، لم يكن الا امتداداً للفن المسيحي في سورية. »[2]

هذا هو الفنّ الظاهر غالباً في بنايات الرصافة من السور بابوابه الاربعة ، الى الابراج ، الى كنيسة القديس سرجيس ، الى ما حولها من معابد ومنازل لم يبقَ منها الا جدران متداعية ، وقناطر على وشك الانهيار.

يدور السور بالمدينة مربعاً مستطيلاً ، كما قدّمنا، مقتطعاً على زوايا مستقيمة يعلو كلًّا منها برج مستدير للحامية . وعرض جداره ثلاثة امتار ، جُعل فيه ، على طوله، ممرّ داخلي معقود (الرسم ٣) يسير فيه الحرس مدة الحصار، فيراقب من خلال المنافذ الضيقة حركات العدو في الصحراء القريبة. وكأنّ الواجهة الجنوبية كانت عرضةً للهجمات اكثر من سائر النواحي، او كأنها هوجمت خاصة في بعض الحصارات ، فقويت بان اردف جدارها بسلسلة من القناطر المتتابعة. اما الخندق

(١ P. J. Mattern, s. j., *A travers les Villes Mortes de Haute Syrie*, Beyrouth, 1933

٢) جان لاسوس: الفن المسيحي في سورية في القرنين الخامس والسادس. (المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ١٦٣)

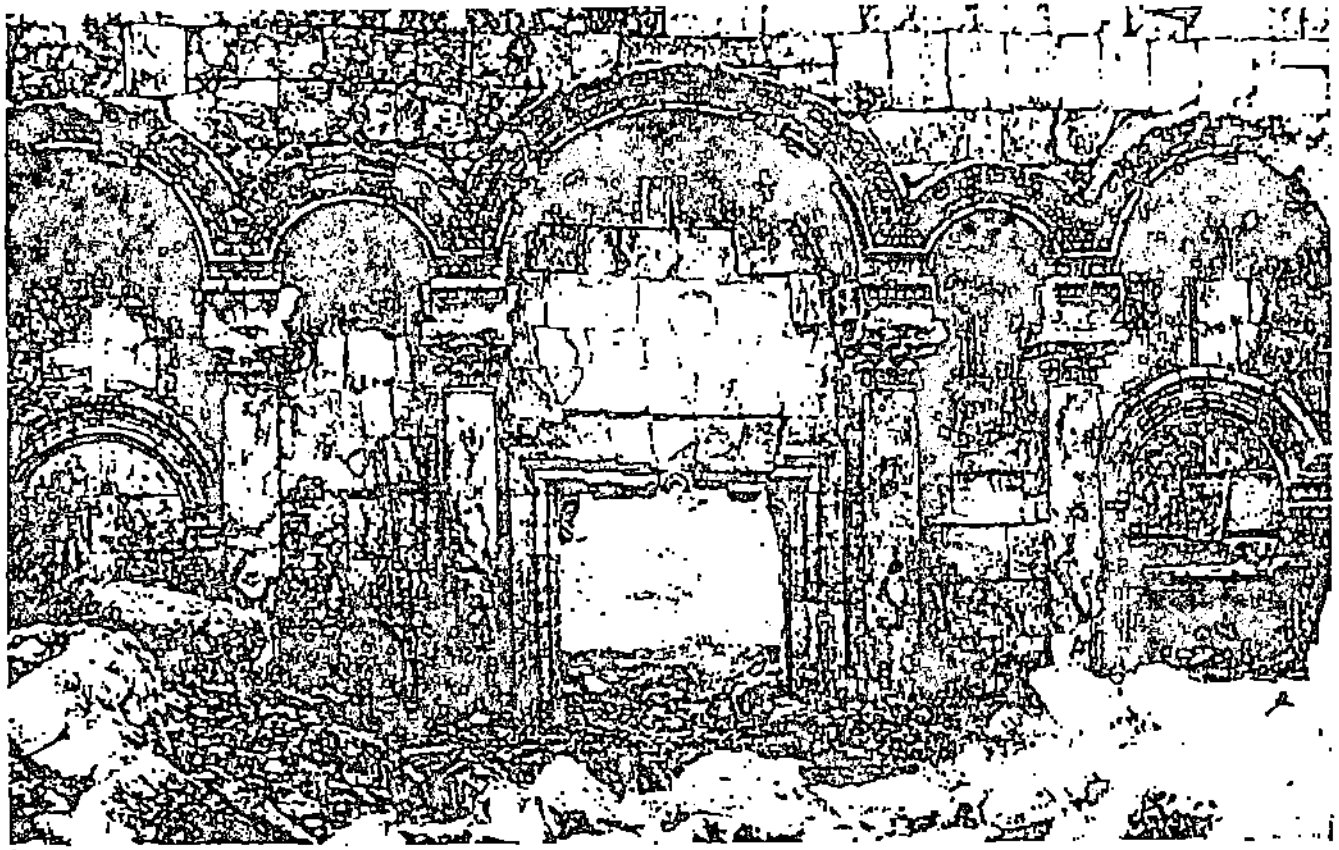

الرسم ٤ – الباب الشمالي

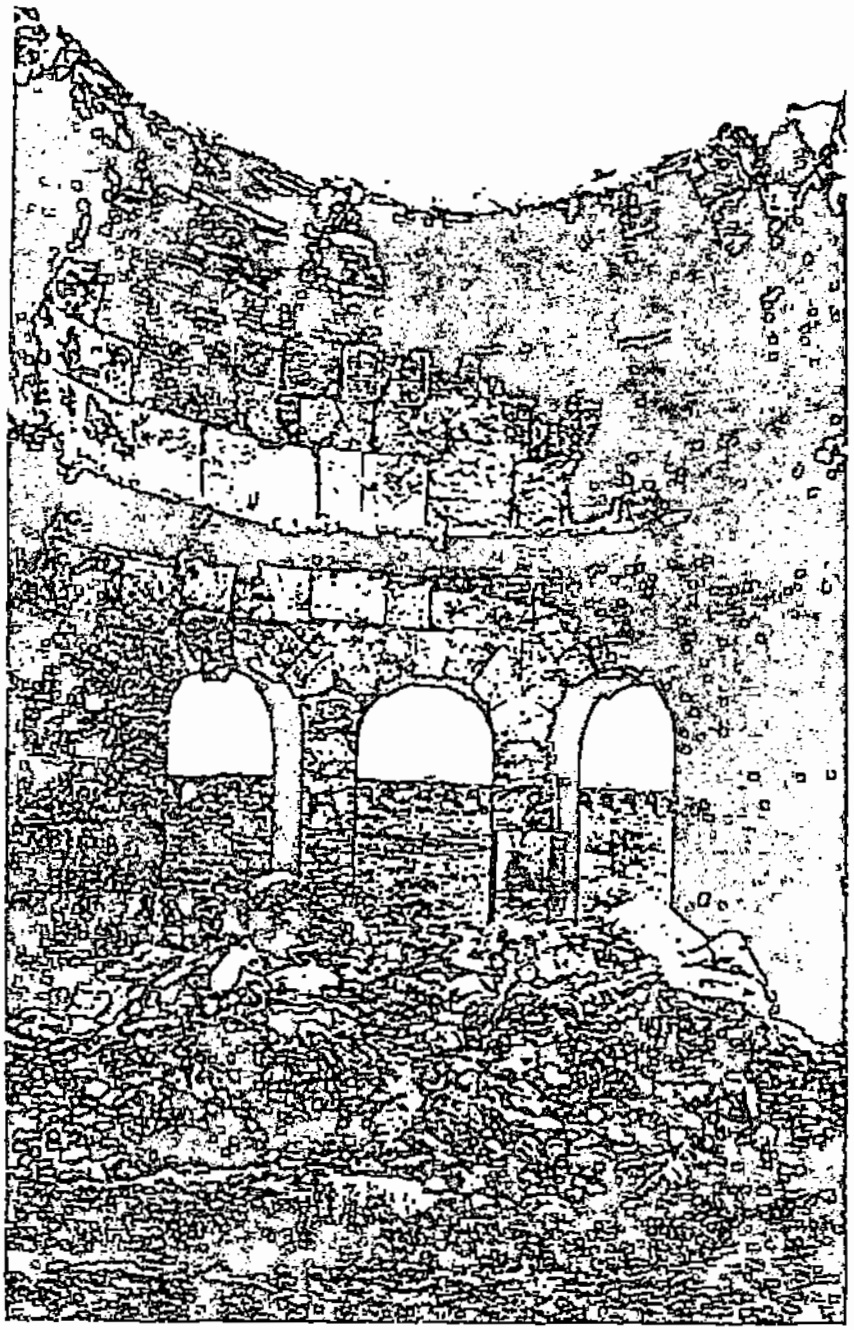

الرسم ٥ - حنية المبد المسدس الاضلاع

الذي كان يدور بالاسوار فقد طمرته الرمال حتى لم يبقَ منه اثر .

وقفنا طويلًا امام البـاب الشمالي نتأمل ما حفظته الايام من زخارف تلك الحنايا (الرسمان ٤ و٥) ، ونتخيّل ما كلفته تلك الاعمال من سعة تصور ودقة تنفيذ ، وما دفع اليها من قوّة ايمان ، وثبات عزيمة . جهود جبارة قاومت طوارئ الطبيعة ، وعوادي الزمان كما قاومت غزوات الفرس ، واكتساحات المغول ، فنقلت الينـا في زخارفها الغضّة الطريفة ، إقدام سكانها وصلابة قصدهم . بُنيت سرجيوپوليس ، بشكلها الحالي ، سوريةً بيزنطية على اسم مار سرجيس ، شفيع تلك المنطقة ، فحملت اسمه مدة طويلة ، ولا تزال حاملة الى اليوم ، والى يوم تنهار آخر حنية من قناطر واجهتها الشمالية ، شعار الصليب شاهدًا حيًّا ، منذ خمسة عشر قرنًا ، على نصرانية المدينة . ومما يجدر بالذكر ان من تقلب على حكمها من ارباب الدول المختلفة الديانات لم يتمكنوا من تغيير المعالم المسيحية فيها . وهذا المدخل الشمالي ، فوق ما يظهر فيه من صلبان وسط اقواس الحنايا المزخرفة باوراق العنب والعناقيد ، لا يزال يحمل في شرفته العالية آثار شواهد اربعة ترمز الى كتبة الانجيل . اما هندسة الباب فسورية متأثرة ببعض الشيء بالاثر البيزنطي والاثر الجزري . يبدو ذلك في العتبة الاولى الافقية ، واطارها المنقطع الى زاويتين قائمتين ، وبما يعلوها من قنطرة مقطوعة فوق منتصف الدائرة ترتكز على عمودين خارجين عن الباب ، وتتصل بسلسلة من القناطر شبيهة بها شكلًا ، ولكنها اصغر حجماً . وكلها مزدانة بالنقش البارز تمثل فيه اوراق الدوالي والعناقيد ، واوراق اللبلاب والكنكر المنحنية ، وبعض الاشكال الهندسية . (الرسم ٤)

تجاوزنا الباب داخلين ، وسط الانقاض المتراكمة ، نطأ برفق ، ولا نكاد ، اقدام الاعمدة المكسّرة ، وصفائح الجبس اللماعة ، وقطع الخزف الملوّن والزجاج المخضرّ ، قافزين على تلك الحفائر التي يحتفرها البدو في مرورهم على الرصافة فيفتشون عما هناك من آثار يخالونها ثمينة . وما ان وصلنا الى اطلال معبد صغير مسدّس الاضلاع ، لا يزال محفوظاً في حنيته المتجهة الى الشرق ، القائمة على ثلاث قناطر (الرسم ٥) ، حتى اندفعنا نتفقد تلك البقايا . فمنا من يتسلق الجدران او

يحاول النفوذ في الانفاق ، ومنا من يدرس الهندسة البنائية ، ومنا من يفتش عما قد يكون هناك من كتابة . حتى صاح شارل القرم فرحاً ، واذا به يكتشف ، في حائط الهيكل ، قطعة من خشب الارز يفوح عرفها حتى اليوم ، واذا بنا نسرع اليه نتقاسم شذرات من تلك الذخيرة . ولا يسل المطالع عن نحيب تلك الشذرات من هياج شاعرية صاحب « الجبل الملهم » ! فهو الارز بسموه وفضله ينتقل الى الصحراء فيساهم في حفظ ذاك المعبد ، وهو لبنان بفكره المولد ودماغه المنظم ياتي نوره حتى مجاهل سورية الشمالية ! . . .

ولم نفق من تلك النشوة الا على اصوات بشرية تقترب شيئاً فشيئاً يا لغرابة الاتفاق ! ويا لحسن الملتقى ! هـذا الاستاذ دونان ، مدير حفريات بيبلوس ، والسيدة عقيلته ، والسيد حموه . وبعد تبادل سلسلة قصيرة من المجاملات انتقلنا جميعاً الى تفقد الكنيسة الكبرى ، كنيسة مار سرجيس .

هي في الناحيـة الجنوبية الشرقية من المدينة تنكشف اطلالها عن سوق فسيحة في الوسط يحف بها سباطان من القناطر ترتكز على اعمدة وردية من الغرانيت المصري (الرسم ٦) ، وفي الطابق الاعلى سلسلة من القناطر الصغيرة تفرج عن النور فتقوم مقام النوافذ للكنيسة . ولا شك في انها تجمع في شكلها الحاضر مظهرين او اكثر من مظاهر البناء .

اما المظهر الاصلي فلم يكن في بنائه شيء من تلك الاعمدة الغرانيتية . انما كان تصميمه اوسع وقناطره افسح تستند ، لا الى الاعمدة ، بل الى اركان من الحجارة المبنية . ولا تزال تلك القناطر الاصلية الفسيحة ظاهرة في الاطلال . وكل واحـدة منها تشمل قنطرتين من البناء الحديث كما يبدو للمتأمل في الرسم ٦ .

وقـد تكون الطوارىء المتأتية على المدينة ، وبالتالي على الكنيسة ، زعزعت من بنائهـا ، بل قد تكون استُخدمت الكنيسة نفسها ، زمن الاضطرابات والاكتساحات ، معقلاً او حصناً ، فخرب قسم منها . حتى اضطر الناس الى ترميمها في القرن الحـادي عشر ، كما تدل بعض الرقم المنقوشة في رؤوس الاعمدة المصرية ، وكما يُستنتج من رقيم شهير وُجد في الرصافة نفسها

الرسم ٦ – منظر سوق الكتبية

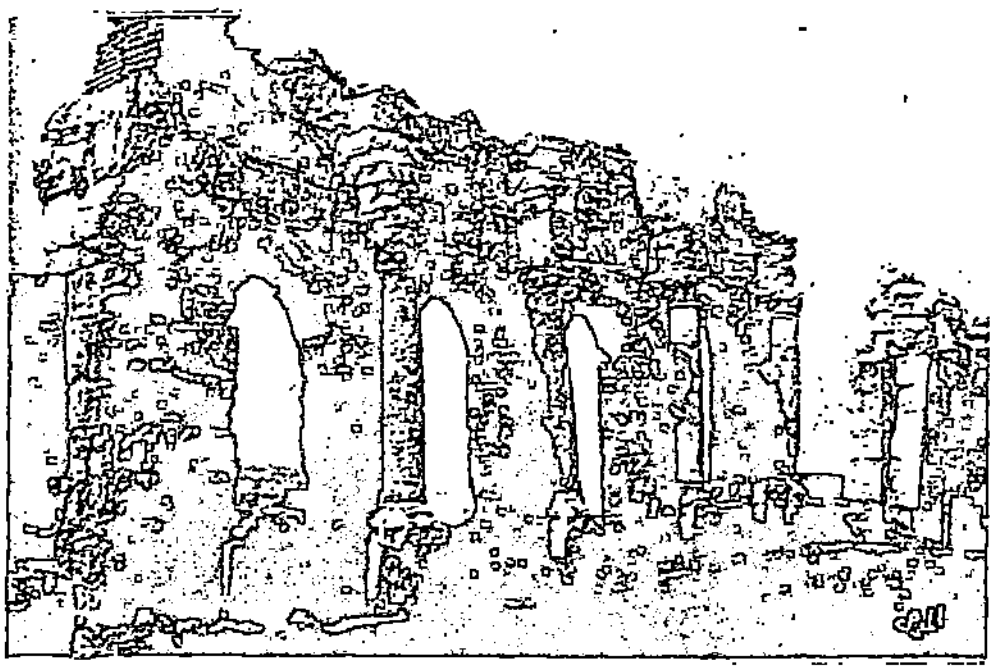

الرسم ٧ – القسم الاعلى من الكتبية ، وفيه منافذ النور

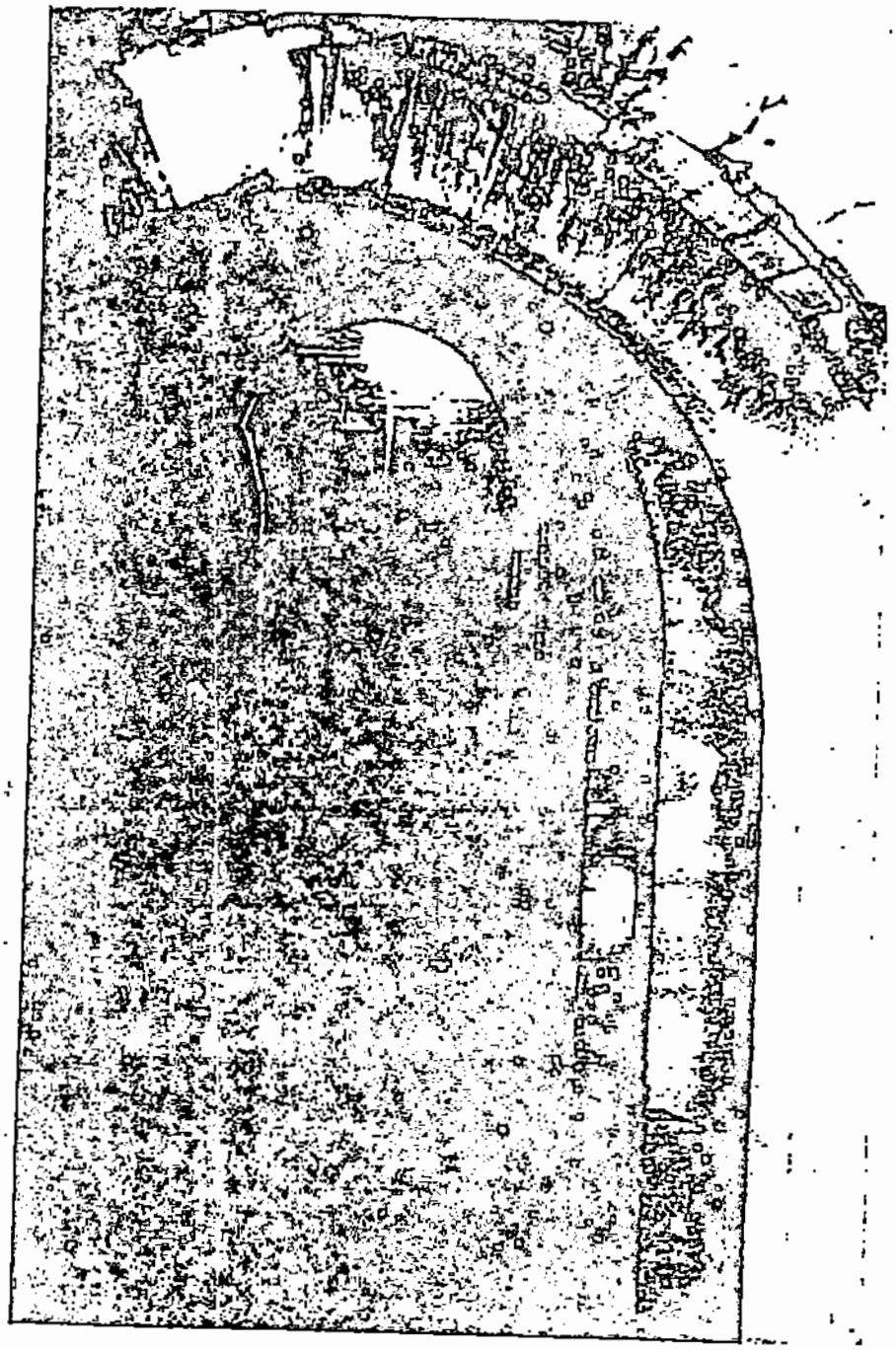

الرسم ٨ – منظر احد الصهاريج

ونشرته مجلة « اصداء الشرق » في سنتها الثالثة[1] ، وفيه ان هذا الاثر « رُمِّم على عهد اسقفية سمعان ، اسقف سرجيوبوليس ، في شهر تموز من سنة ٦١٠١ للعالم »، وهي السنة الموافقة للسنة ١٠٩٣ من تاريخنا. ومما يدلّ على ان الاعمدة لم تكن في اصل البنـاء ضعف الفن الهندسي في استخدامها حتى تظهر كأنها منسلخة عن الجدران الاصلية، ولا شأن لها الا تقوية القناطر الاساسية الكبرى. أوَلا يلاحظ متأمل الرسم ٦ هذه الفروق بين نوعي البناء ؟ أوَلا يلاحظ كيف سدّ الفراغ بين عتبة القنطرتين الصغيرتين وحنيّة القنطرة الكبرى ، وكيف رُصفت الحجـارة على غير ترتيب فني ؟ كل هذا ، مع ما حُشي في مؤخرة الكنيسة من قطع الآجرّ الراقي ، في طريقته ، الى العهد العربي ، لدليلٌ على ما تداخل البناء الاصلي من فساد . بيد ان رشاقة الهندسة الوطنية لا تزال ماثلة في ارتفاع تلك القناطر المتسعة الاقواس حتى انها لتفوق في هذا كل ما يعرف من نوعها في بناء الكنائس القديمة . وكذلك تظهر تلك الرشاقة في الطابق الاعلى من الكنيسة ، في تلك النافذ المتحنية المزدانة باعمدة الجبس لا يخالطها حجر اجنبي (الرسم ٧) ، وهي مبنية على طريقة تجعل النور ينفذ الى صحن الكنيسة صافياً متعادلاً في جميع ساعات النهار . ولقد كانت رؤوس تلك الاعمدة الصغيرة، الواقفة على مقاعد مستندة الى القناطر الكبرى ، تستقبل اطراف الجسور القائمة بحمل السقف . وكان المذبح في الحنيّة الشرقية يعلو نفقاً معقوداً جُعل فيه جسد القديس الشهيد . ولهذا النفق سلمان ينحدران بدرج لم يبقَ منه الا بعض الحجارة المبعثرة .

هذه هي البيعة الكبرى التي ردّد ذكرها مؤرّخو العرب والسريان وغيرهم فعظّموها تعظيمهم شفيعها الكبير ، وافاضوا في وصفها ، حتى ذكر ابن بطلان ان بانيها قسطنطين بن هيلانة ، وان ظاهرها مزخرف « بالفص المذهب » ، واشار ، في ما نقله ياقوت ، الى « ان تحتها صهريجاً على مثل بناء الكنيسة معقوداً على اساطين الرخام، مبلطاً بالمرمر، مملوءاً بماء المطر ». قلنا: ولعله خلط بين الصهاريج الآتي ذكرها وقبر القديس سرجيس تحت مذبح الكنيسة ! او قد

(1) Echos d'Orient, III, 238

يكون تحت الكنيسة صهريج خاص طمرته عوادي الزمن حتى خفي اثره !

في هذه الكاتدرائية ، كانت تعقد الحفلات الدينية الفخمة ، ولاسيما في عيد شفيعها ، فتتصاعد النغمات ، والتراتيل الطقسية . ويقصدها افراد القبائل البدوية الضاربة في تلك الانحاء ، فضلاً عن الحضر ، فيشتركون في تلك المواسم ، على اختلاف نحلهم . وقد كان الخليفة هشام نفسه يحب سماع صلوات النصارى في اعيادهم ، على ما ورد في تاريخ ساويروس ابن المقفع ، فكان يصغي الى تراتيلهم من قصره اللاصق بالكنيسة . واذاً فقد كان قصر هشام جنب هذه الكاتدرائية . ولعل في هذه الاعمدة المنطرحة ما كان قائماً في دار الخلافة .

وبينا كنا نتناظر في أسلوب بناء الكنيسة ، وتاريخ اقسامها ، وتعيين محلاتها ، ولكل منا رأي يستند تارةً الى أثر ضعيف ، وطوراً الى وهم ، وحيناً الى رغبة في الاطلاع على رقيم يفيده شيئاً ويخفّف عنه التفتيش بين تلك الحجارة المكدّسة ، اذا بنا نذكر رقيماً من القرن الحادي عشر يشير الى اسمين هما سرجيوس ومارونيوس . اما سرجيوس فهو مار سرجيس دون منازع . واما مارونيوس فليس من شكّ ، في نظر شارل القرم ، بانه مار مارون . وليس من شك في نظر الاب منيس البندكتي ، الزائر الرسولي لرهبانية الشوير الملكية ، بانه غير مار مارون . وها اننا نشهد فصلاً جديداً من المناظرة الدائمة بين ماروني اصيل متحمس ، وورومي كاثوليكي حديث له غيرة المبتدئين ، فلا يقل حماسةً عن الاول . وتتوالى الشواهد من الجانبين ، والمفاضلات الدينية والطقسية ، والمفاخر العنصرية باسلوب يتنقل بين العلم والشعر ، تهيجه النبرات الحماسية ، ولكنه لا يخرج عن ادق مظاهر الذوق ، واصفى صفات الادب . ونشترك جميعنا في تلك الاحاديث ، فتعود الحياة الى صحن الكنيسة المهجورة منذ مئات السنين ، وكأنَّ الحفلات الدينية قامت فيها من جديد ، والمناظرات اللاهوتية استعادت ازدهارها على عهد البيزنطيين . حتى يخرجنا احد الحاضرين من تلك النشوة ، فيقترح نشر الدعوة لزيارة اطلال الرصافة ، وتأليف شركة مساهمة ، يكون هو رأسها طبعاً ، لبناء فندق عصري ندعوه : « سرجيوس ومارونيوس بالاس اوتيل » . . .

بقي علينا زيارة الصهاريج ونحن نعرفها عظيمة ضخمة كافية لتموين المدينة بماء المطر، اذ لا عين ماء عندها، ولا نهر الا الفرات على نحو اربعين كيلومتراً. وها هي تظهر في الزاوية الغربية الجنوبية. ثلاثة منها متشابهة مبنية بحجر الجبس المعروف، راقية دون شك الى اقدم عصور المدينة، ولا تزال محفوظة بقبابها، يبلغ طول الواحد منها لا اقل من اربعين متراً، في نحو ثلاثين عمقاً، في نحو ١٥ عرضاً (الرسم ٨). والى جنبها صهريج رابع مبني بالآجر والخزف يرقي الى العهد العربي. وكأنهم احتاجوا اليه بعد ان كثر سكان المدينة فبناه النعمان بن الحرث ابن الايهم الغساني، على قول ياقوت، وهو الذي وضع الصليب على مدخل المدينة «لانه كان نصرانياً»، في قول المؤرخ نفسه[1]. وقد يكون هشام اصلح تلك الصهاريج وزاد فيها لان سكان المدينة، على عهد هشام، كانوا اكثر منهم في اي عهد. ولم تكن هذه الصهاريج تكفي وحدها لحاجات المدينة، فقد كان هناك آبار عمق الواحد منها، في ما روى الاصمعي، مائة وعشرون ذراعاً الا ان ماءها مالح رديء. فلا يلجأون اليها الا اذا فرغت الصهاريج. يلجأ اليها الفقراء خاصة. اما اهل الثروة فيرسلون عبيدهم يستقون على الحمير من الفرات «يمضي احدهم العصر فيجيء بالماء في غداة غد». والاغنياء كثيرون بينهم لانهم، في اكثرهم، تجار؛ منهم من يسافر الى الاقطار البعيدة ومنهم من يعامل العرب مقيماً في المدينة، وكل رجالهم، اغنياء وفقراء، يغزلون الصوف؛ ونساؤهم يشتغلن بالنسيج، فيصنعن اكسية جميلة مشهورة.

على ان التجار كانوا عرضة لاذى البدو الضاربين حول الرصافة لا يخلصون منهم الا بتأدية خفارة معلومة. فهم بين خطر العطش، وشظف العيش، وتهجم اللصوص والصعاليك، ومع هذا، فانهم لا يرضون عن رصافتهم بديلاً، «ولولا حب الوطن، لخربت» كما في قول ياقوت.

وما هو ان تناولنا طعام الغداء في تلك الخرائب الموحشة حتى ركب الاستاذ دونان ورفيقاه سيارتهم متجهين في الصحراء نحو تدمر، وركبنا سيارتنا نحو الفرات، قاصدين الرقة.

١) راجع الاب شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ٤٥٦

عبر الفرات

هي الصحراء نفسها تغمرنا في الاصيل بما غمرتنا به في الصباح . الّا ان هواءها اسخن ، وشمسها ألذع ، وسرابها اقلّ صفاء . تظهر لنا الواحة المتماوجة ماء ، المزدهرة اشجاراً ، فنُجذب اليها مع علمنا بوهميّتها ؛ ولكنها لا تلبث ان تتبدّد ، فتمحوها موجة مكتسحة من الهواء الجافّ اللافح ، او رجّة قويّة من السيّارة وقد تنزت على بعض الاخاديد تغطّيها الاعشاب اليابسة ؛ فنستفيق لحظة ، ثم نعود الى الوهم مدفوعين بتلك الحالة المخدّرة التي تغمر الانسان في الهاجرة ، بين الطعام والمنام . . . ولا نكاد نشعر الا وقد ادركنا مفرق كواكول الحمام ، ذاك الذي تهنا عنه صباحاً . فوقف السائق قليلاً ، ناظراً الينا باستفهام ، متردداً بين حلب ودير الزور . ولم يكن الّا القليل حتى ادار مقوده الى اليمين، وسرنا على مجاز دير الزور ، الى الفرات .

لا يشعر اللبناني بعظمة «النهر» الّا اذا خرج من لبنان . يخرج الى مصر فيشاهد النيل في جلاله البطيء ، او الى شمالي سورية فيرى الفرات في تقلّبه وتوثّبه ، وحينئذٍ يتحقق نصيب المبالغة الشعرية في تسميتنا مسيل بيروت ، وساقية الدامور ، وجدول الاوّلي ، «انهراً» ، كما يتحقق المبالغة نفسها في دعوة اهل مصر مرتفع المقطّم «جبلاً» ، وفي اجماع السوريين من سكان الشمال على الاعجاب بتنوّع مناظرهم الطبيعية ، والاشادة بذكر مصايفهم ! هي النسبة تعمل في الآراء والاحكام عملها في الخيال والشعور !

ولكن لندع التفلسف جانباً ، ولنفكر في قطع هذا النهر المتدفّق على عرض لا يقلّ عن مائتي متر ، تتزحلق مياهه اللزجة على الضفة ، جارفةً تربتها الدسمة ، مصطبغةً بذاك اللون الاغبر حتى تزلق عليها اشعة الشمس فلا تنيرها الا بالكدرة القاتمة ؛ بينا تراها مسرعةً في عرض المجرى ، وقد تنقّت من الكدر فمالت الى الزرقة السماوية تتخلّلها الاضواء القويّة فتزيدها صفاء على صفاء .

هنا على الضفة القريبة ، حيث وقفت بنا السيارة مرغمةً ، اكواخ خشبية

لا تنتأ تتراجع امام هجوم النهر ، فتقصر المسافة بينها وبين مفرق دير الزور . قصدناها مستعلمين عن طريقة الوصول الى الرقة في الضفة الثانية ، فحاولنا الكلام بالعربية والفرنسوية ، ولكن دون جدوى . واذا بنا نشاهد صاحبة احد الاكواخ تدانف نحونا باهتمام — وهي امرأة لا عمر لها يُقدر ، لبست سروالاً لا لون له ، وتمنطقت فوقه بزنار يستر نصفه بصدرية مخملية الاصل عُلقت فيها طائفة من النقود النحاسية . ابتسمت هذه السيدة عن اسنان بارزة ، واخذت تشير الى اصناف بضاعتها ، عارضةً علينا ما يُؤكل او يُشرب . هذه علب سردين اثرت فيها اشعة الشمس فنصلت الوان ماركاتها . وهذه كعكات شتا عليها الذبّان وارتبع واصطاف فتركها مخططةً منمرة بالسطور المتماوجة . وهذه كاسات فيها سائل اغبر كالحليب الوسخ تشعر العين بلزاجته . واذا هو ماء الفرات يتناوله الاهلون قريباً من الضفة ، ويشربونه بدسمه لا يريدون عنه بديلاً ، لو سهل عليهم وجود ذاك البديل .

شكرنا تلك الفاضلة على قدر المستطاع ، وحاولنا افهامها — على قدر المستطاع كذلك ! — انّا نفتش عمّن يقطع بنا النهر ، فلم نُفلح ؛ ولم نفهم الا كلمة « سرجان » . فاعدناها مثنى وثلاث ورباع . واذا « بالسرجان » مقبل مع اربعة من انفاره . أدّى التحية العسكرية على افضل ما يكون من دقّة ، وسألنا عن قصدنا بلهجة فرنسوية مفهومة . فاستفتيناه بشأن الوصول الى الرقة ، فقال :

— هناك زورق مدني لا يسافر الا ماء . وهنا زورق عسكري يسافر عند الحاجة .

— وهل يمكن ان نقابل ملّاح الزورق العسكري فنطلب اليه نقلنا ؟

— انا ملّاحه . وانا مستعدّ لنقلكم بكل سرور ، على شرط ان تنالوا اذناً من الكابيتين .

فاغتبطنا بهذه النعمة ، وهمنا بالاسراع الى الكابيتين ، فنحييه ، ونطلب منه الاذن بالسفر . على ان السرجان قطع بنا مجرى السرور ، عندما سألناه عن مركز الكابيتين ، فأجاب :

— هو في الرقة ، على الضفة الثانية !

فزاغت ابصارنا مدّة ، وحارت عقولنا في حلّ هذا المشكل . والسرجان مأمور عسكري لا يفهم الا لغة الاوامر الصريحة . يفهم انه ينقلنا الى الضفة الثانية ، بناء على اذن من الكابيتين . ولكنه لا يفهم انه يجب ان نكون على تلك الضفة للظفر بهذا الاذن . وهكذا درنا مدة ، حتى خطر لاحدنا ، وهو من ضباط الجيش الفرنسوي ، ان يقنع السرجان بطريقة غاب عنا سرّها. واذا به يدعونا بلطف الى الزورق. واذا بالتيّار يحملنا في تدفقه ، فنعلو ، ونهبط ، ونزفّ ، وتتضارب الامواج على الجؤجؤ تثيرها رياح الاصيل ، فتتكسر صاخبة آنّة ، ويتناثر على ثيابنا زبدها المتطاير . هي رياح الربيع الليّنة ، ولم تذب الثلوج بعد في « جبال الروم » ، فكيف بالفرات في رياح الشتاء ، بل كيف به اذا ذاب الثلج في حزيران ،

وزعزعته رياح الصيف ، واضطربت ، فوق الجآجئ ، من آذيّه غُدُرُ !

فلا عجب ان تطّرد حملاته اذ ذاك ، فتتراتب اواذيّه الجُون سوداء الاسافل ، بيضاء القوارب ، فتتدافع السفنّ وتطردها كالنعام الناشرة اجنحتها الزفوف ، كما في قول الاخطل . ولا عجب ان

يمصّ بالملاح حتى يشفّه الحذار، وان كان المُشيح المودّاء

فيقلق ملتفتاً ذات اليمين وذات اليسار ، ينبّه هذا النوتي ، وينهر ذاك ، يداور التيّار ، ويعارض مقذوفات النهر ، وهو على كل حال ، يظلّ

متعصماً بالخيزرانة ، بعد الاين والنجد .

ولا عجب ان يعلو التيّار الجزائر الصغيرة ، فيجرف ترابها ، ويكسر نباتها حاملًا « الركام من ينبوتها وخضدها » — وها اننا نرى واحدةً من تلك الجزر يحاذيها التيار ، فتهرب مسرعةً الى الوراء بما يحوم فوقها من اسراب الطيور البيضاء ، تحلّق عصائب فوق الموج ، فتنقضّ على ما يلوح في طيّاته من صغير الاسماك ، وتتهافت على ما يلقيه في الشاطئ الرملي من الفضلات النهرية . هي «بنات الماء» الناصعة البياض، المنتشرة الاجنحة، الطويلة الاعناق والمناقير، المضطربة على صفحة النهر باضطراب امواجه ، حتى اذا سكن ، مالت الى الاستراحة

في جرانبه ، فانتظمت صفًّا مرتّباً ورفعت اعناقها البيضاء كؤوس الاباريق ، في تشبيه الاخطل :

كأن بنات الماء ، في حجراته ، اباريق اهدتها دباقُ لصرخدا !

هذا هو الفرات بما يثيره من قلق ، وبما يدفع اليه من شعر . غذا مخيلة الضاربين على ضفتيه من العراق الى الشام ، من الذبيانيين الى التغلبيين ، من النابغة الى الاخطل ، فخفف شيئاً من جفاف الصحراء ؛ واذا في قصائدهم من تنوّع الصور ، وطراءة الالوان ، ونضارة الحياة ، ما لم نعهده في صلابة نجد ووهج الحجاز .

الرقة البيضاء

هذا ، وابصارنا ترود الافق القريب ، على الضفة المقابلة ، وقد دنونا منها في دقائق معدودة ، نفتش ناهمةً عن « بروج الرقة البيضاء » فلا تقع الا على مئذنة مستديرة الى اليمين ، وعلى خيال بناء ضخم الى الشمال . والى القرب منا، في مرسى الزورق، حماران هزيلان تعلو الواحد منهما امرأة محجبة ، حائرة ، في مهابّ الريح الشديدة ، بين ضغط خمارها المتطاير وضبط حمارها المرح ، صائحة بغلام هناك أن يعاونها على الاخذ بزمامه ، بينما كان الحمار الثاني ينتظر بصبر وثبات من يحمله الى الرقة .

وذعنا السرجان منتظراً الاذن بنقلنا الى الرقة ، واتجهنا الى مقرّ الكابيتين في ذاك البناء الضخم ، ودليلنا احد الفلاحين يتنقّل بنا بين الوحل والغبار ، ونبات المستنقعات . ولما طال علينا الطريق ، واشتدّ الحرّ ، سألناه عن وسائل النقل في المدينة ، فذكر الحمير اولاً ، ثم زاد ، كمن تذكّر امراً مهماً :

— وعندنا السيارة !

السيارة — على الاطلاق ! — وما عسى ان تكون هذه التحفة ؟ وسرع ما ارسلناه يستأجرها ويلاقينا الى مركز الحامية العسكرية ، وكنا قد وصلنا اليه . فاستقبلنا الكابيتين بكل لطف ، واعطانا الاذن الصريح بنقلنا الى الرقة ، ثم باعادتنا الى الضفة المقابلة . ثم جلنا معه في اقسام المركز ، وكلها ناطقة

بنشاط الجند ، وسهرهم الدائم . ومما يجدر بالذكر محاولاتهم المرفقة احياناً في تشجير تلك المحال الجرداء. تقول « المرفقة احياناً » لان من اصعب ما يلاقون في حماية غروسهم ذاك الهواء العاصف الذي لا يكاد يهدأ ليلاً ولا نهاراً . يهبُّ على اغراسهم فيكسر اغانيها ويزعزع جذوعها حتى اذا اسندوهـا الى العكاكيز الضخمة من الصفصاف ، لم تسلم جذورها من القلقلة والاضطراب . وكثيراً ما رأينا الغرسة يابسة متناثرة الورق ، وعكّازتها حيّة غضّة البراعم . وهو ما اهـاب بالكابيتين الى تحقيق مؤلم في ازدهار الطفيليّات بانتزاعها غذاء الاصول . . .

واذا بضجيج صاخب متواصل يقترب منّا ، ويشتدّ . فيه من تقصّف الرعود المفرقعة ، وفيه من أزيز المحرّكات العتيقة ، وفيه من قعقعة الصفائح الحديدية ، وفيه من طقطقة التنك المجرّر . هي « السيارة » التي وُعدنا بها تقف امام مدخل الثكنة متقطعة الانفاس ، مواصلة النحيح والنفيخ . فنودّع الكابيتين ونركبها الى اطلال الرقّة القديمة .

تاريخها

عُرفت الرقّة ، قبل المسيح ، باسم نيقيفوريوم ، بناها الاسكندر الكبير في زحفه على دجلة . ثم عُرفت ، على العهد الروماني ، باسم كالينيكوم نسبةً الى البوفسطاني كالينيكوس الذي قُتل فيها ، على ما يُقال . وسُميت كذلك قسطنطينوپوليس ، ثم لاونتوپوليس نسبةً الى بعض قياصرة الرومان . وقد نالت نصيبها من الفواجع والاحداث ، اثناء الحروب الفارسية الرومانية ، والفارسية البيزنطية، لوقوعها على ممرّ الجيوش . حتى كان الفتح العربي فاناخ عليها جيش عياض ابن غنم سنة ٦٣٨ ، ثم راسل اهلها على الصلح ، فقبلوا. والعرب يسمّونها الرقّة البيضاء — وهناك رقّة سوداء على فرسخ منها الى ناحية البليخ — وفيها يقول سهيل بن عدي ، اثر الفتح المذكور :

وصادفنا الفرات ، غداةَ سرنا ، الى اهـل الجزيرة ، بالموالي :
اخذنا الرقّـة البيضـاء ، لمّا رأينـا الشهر لوّح بالهـلالِ ،
وأزعجت الجزيرة بعد خفضٍ ، وقـد كانت تحوّف بالزّوالِ ؛

وصار المرج ضاحيةَ البنا باكناف الجزيرة عن تنالي(١
جعلها من الجزيرة لأنها على ضفة الفرات الشرقية ، وهو الحدّ الفاصل بين الشام والجزيرة . ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة الى ثلاث مناطق او « ديار »: ديار ربيعة وقاعدتها الموصل ، وديار بكر وقاعدتها آمد ، وديار مُضر وقاعدتها الرقّة هذه .

واتصل ذكرها بالاحداث الاسلامية منذ العصور الاولى، فكانت مشايعةً لعثمان ، ثم للامويين من بعده . وذلك ان كثيرًا من وجهاء العراق ، كزفر بن الحرث ، والجحّاف بن الحكيم ، وعبيدالله بن الحرّ ، ومالك بن مسمع ، هجروا البصرة ، بعد وقعة الجمل ، بل تركوا العراق كلّه قائلين قول بني الارقم : « لا نُقيم في بلد يُشتم فيه عثمان .»[٢] فساروا حتى نزلوا الرقّة ، فأثّروا في اهلها ، ونشروا فيهم « العثمانية » ، فاندفع هؤلاء حماسةً ومنعوا جيوش علي ان تقطع الفرات[٣] . وقد ظلّ اهلها على الولاء للامويين زمن ازدهار الدولة العباسية ، وبعد انحطاطها حتى عهد الحمدانيين ، على ما ورد في قولٍ لابن حوقل († ٩٨١) سنعود اليه .

وقد كان ينزل الرقة الوليد بن عقبة الاموي مع صديقه الشاعر ابي زبيد النصراني، فينعمان بساتينها[٤]، وبما توحيه من شعر في جمعها بين الصحراء والنهر ، بل بين « البرّ والبحر » مما لم يعهده البدو ، وان كانوا من قريش او أسد ، كما يقول ربيعة الرقي ، احد شعرائها :

حبّذا الرقّة دارًا وبلَدْ بلدًا ساكنه ممّن تودْ
ما رأينا بلدةً تعدلها ، لا ولا اخبرنا عنها احدْ
انها بريّةٌ بحريّةٌ : سورها بحرٌ وسور في الجدَدْ
تسمع الصلصل في اشجارها هدهد البرّ ومُكّاء غرِدْ
لم تُضمّن بلدةٌ ما ضُمّنت من جمالٍ ، في قُريشٍ وأسَدْ

١) ياقوت : ك . م ٢ : ٨٠٢
٢) راجع اسد الغابة ٣ : ٢٩٧ ؛ وتاريخ اليعقوبي (Houtsma) ٢ : ٢١٥
٣) اليعقوبي ٢ : ٢٨
٤) اسد الغابة ٥ : ٩٣ ؛ وراجع: *Mélanges de la Faculté Orientale*, I, 13-14

ونزلها كثير من رجال بني أمية، فازدهرت عمارتها مدة طويلة وعندما قصد هشام الاقامة في الرصافة، بنى بالجانب الغربي من الرقة، في مكان يُسمى رقة واسط، قصرين كان ينزلها في طريقه الى الرصافة[1]. واختط فيها سوقاً عظيمة عُرفت «بسوق هشام»[2].

وفي اواخر العهد الاموي، مشى عليها الضحّاك الخارجي في جيشه، فأرسل مروان الحمار، سنة ٧٤٦، عسكرًا حاربه واضطر الخوارج الى الرحيل عنها. ولعلّ ما اصابها اذ ذاك من المصائب اللازمة للحروب الاهلية، وما ولي ذلك من إعراض بني العباس عن مصانع الامويين، عمل على تأخرها وانحطاطها حتى اواخر خلافة المنصور، فرأى المهدي، وليّ عهده، ان يعزّز النفوذ العباسي على حدود سورية الموالية لخلفاء الامس، فبنى سنة ٧٧٢، الى جنب الرقة، على ثلثمائة ذراع منها، مدينةً حصينة سمّاها «الرافقة»، وجعل لها سورين على طراز «مدينة السلام»، اي بغداد، التي بناها ابوه المنصور[3]. ورتّب بها حامية من جند خراسان. ولم تلبث البنايات ان اتصلت بين المدينتين، وكثيرًا ما سمّاها الناس «الرقتين». الى ان ولي الجزيرة علي بن سليمان بن علي، فاقام بالرافقة ونقل اليها اسواق الرقة، وفيها سوق هشام الكبرى، فاغتصبت الرافقة اختها الرقة حركتها التجارية، كما اغتصبت قبل ذاك حركتها الادارية، وكما ستغتصب بعد قليل اسمها فتُدعى «الرقة»، وتخرب الرقة الاصلية فتتلاشى آثارها.

وكان هرون الرشيد يستعذب هواءها فينزلها في الصيف، وهي الطف مناخاً من بغداد واقلّ حرًّا. ولعله كان يرمي الى اقرار هيبة العباسيين في الشام «ناحية اهل الشقاق والنفاق» كما ذكر رادًّا على اهل بغداد، وقد لاموه على ترك مدينتهم، فقال:

١) ياقوت : ك. م. ٢ : ٨٠٢-٨٠٤
٢) ياقوت : ك. م. ٢ : ٧٣٥
٣) راجع في بناء بغداد وهندستها: فؤاد افرام البستاني : بغداد عاصمة الادب العباسي (المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ٦٥-١٠٩)

« ولنعم الدار هي ! (اي بغداد) ولكني اريد المُناخ على ناحيـة اهل الشقاق والنفاق ، والبغض لائمة الهدى ، والحبّ لشجرة اللعنة بني أُمية ؛ مع ما فيها من المارقة، والمتلصّصة ؛ ومخيفي السبيل . ولولا ذاك ، لما فارقت بغداد . »[1]

واذاً فقد كانت غاية الرشيد في انتقـاله الى الرافقة - الرَقّة سياسيةً عسكريةً ، لا صحيّة - الّا ان يكون قوله من قبيـل الاعتذار للبغداديين . ولعلّه جمع بين الغايتين . ومن آثار الرشيد في الرافقة قصر فخم بناه سنة ٧٩٦ ـ ولعلّ منه بعض هذه الاطلال التي تزورها اليوم ! ـ ومصانع عديدة حفلت بها المدينة فكثر سكّانها وتعدّدت اسواقها ، وازدادت حركة التجارة فيهـا عهداً فعهداً ، الى ان استولى الحمدانيون على تلك الانحاء ، فرأى فيها سيف الدولة ما رآه في بالس من كثرة العمارة ، وازدهار التجارة والصناعة والزراعة ، ووفرة الغنى ، فارهقها بالضرائب كما ارهق تلك ، ودُفع في احتياجاته المتتابعة للمال ، مادّة الحروب الدائمة ، الى مصادرة اهلها . وهذا قول ابن حوقل من جغرافيي العصر :

« اجلّ مدينة لديار مضر الرَقّة ... وكان لها عمارة ، واشجار ، واعمـال ، ومياه ، ورساتيق ، وكور . وقلّ حظّها من كل حال ، وضعفت بما حملها سيف الدولة، اخو ناصر الدولة ـ تجاوز الله عنه ! ـ من الكُلف والنوائب ، وصادر اهلها مرّة بعد اخرى . وكانت خصبة ، رخيصة الاسعار ، حسنة الأسواق . وفي اهلها ولاء بني أمية . »[2]

ولم يكتفِ سيف الدولة بالاموال يفرضها على اهل الرقة ، بل تجاوز ذلك الى ضبط مواعينهم احياناً ، حتى انه نزع ابوابها الحديدية ليرسل بها الى حلفائه القرامطة في هجر ، عاصمة البحرين . قال مسكويه المؤرّخ : « في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة (٩٦٤) استهدى الهجريّون من سيف الدولة حديداً . فقلع سيف الدولة ابواب الرقّـة ، وهي من حديد ، وسدّ مكانها . واخذ حديداً بديار مُضر ، حتى اخذ سنجات الباعة والبقالين . ثم كتبوا اليه : انّا قـد

١) البستاني : دائرة المعارف : الرقة .

٢) ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك (de Goeje) ١٥٣-١٥٤

استغنينا عن الحديد. فاخذ القاضي ابو حصين الابواب فكسرها وعمل منها ابواباً لداره ... »[1]

اما الحادث فلا يُستغرب في تلك الايام . واما ابو حصين فهو مَن عرفناه بالخبث والدهاء والاحتيال[2].

وهكذا ظلّت الرقة تحتال على الحياة بزراعتها وتجارتها ، وصناعتها الخزفية الزرقاء المزركشة بالاسود المذهب، الواسعة الذكر في بلاد الشرق كلّها مدة القرون الوسطى، وبما كانت تستفيده من الجيوش المحاربة فتعوض به من بعض خسائرها اثناء الوقائع المتتابعة في الحروب الاهلية بين الخليفة وامرائه — وفيها اجتمع المتّقي بالاخشيد في ايلول ٩٤٤ محاولاً ان يستمين به فلم يُفلح — وبين الاخشيد وسيف الدولة ، وقد لجأ اليها مرتين ؛ وفي الحروب الخارجية المتواصلة بين سيف الدولة والروم. حتى كان عهد نور الدين فاستعادت شيئاً من الازدهار ، وبنى فيها الملك ، سنة ١١٦٦ ، جامعاً ذا منارة مستديرة لا تزال قائمة حتى اليوم . على ان المغول مرّوا عليها ، في القرن الثالث عشر ، كما مرّوا على بالس ، وعلى الكثير من المدن السورية والجزرية ، فلم يتركوا وراءهم الّا شواهد التدمير ، وآيات الخراب.

اطلالها

من تلك الآيات هذه المنارة المستديرة تطالعنا برأسها الشاهق انى اتجهنا في شارع الرقة المستقيم الطويل ، فتلفت الانظار وتجذب الانتباه. بقعقعة « السيارة » المضطربة ، تقلقلنا حتى لا نستقرّ بل لا نكاد نستطيع الكلام، الّا شارل القرم، وكأنه استأنس باشارة فورد تحملها « السيارة » منذ السنة ١٩١٩ او ١٩٢٠ ، عهدَ كان الوكيل الوحيد في الشرق الادنى لتلك الشركة ، فذكر انها خرجت من احد مستودعاته في بيروت ، او دمشق ، او حلب ، او حيفا ، منذ بضع عشرة سنة ؛ وما زالت تتقاذفها الفلوات فتتلقفها ايدي المصلحين من ميكانيكيين وبياطرة وحدّادين ، حتى استوطنت هضاب الرقّة ، تعلو وتهبط بالمسافرين على

١) مسكويه : تجارب الأمم (Amedroz et margoliouth) ٢ : ٢٠٢

٢) راجع الصفحة ٢٣٨ ، من هذا الجزء

غير نظام ، وكأنهم على « الجبال الروسية » في الملاعب اللونا بارك ، بل كأنهم « على قرن الثور ! » كما يقول القدماء . أنس الشاعر « بالسيارة » الأثرية ، وسائقها ، وفيه ، هو ايضاً ، « لِمُصلِحٍ مستمَتعٌ » ، فاقبل يحادثه بين الصعود والهبوط ، فيتناقشان في السياسة والاقتصاد ، والاكثريات والاقليات ، ونحن نسمع اطراف أحكام ، وشذوذ آراء ، تصل الينا بين الضجيج والصخب ، فنعرف ان الرقة يسكنها الكثير من الشركس والبدو ، والقليل من الأرمن ، وان عناصر السكّان على وفاق تامّ بعضهم مع بعض ، وهم جميعاً يشكرون للدولة المنتدبة فضلها في توسيع الشارع ، واقرار الأمن ، حتى ان الأرمن — ومنهم سائقنا — لا يخشون مذابح بعد اليوم . وإن هم ذُبحوا ، فلا بأس ، وقد تعوّدوا هذا النوع من مفاجآت الحياة ينزل بهم مرة كل خمس عشرة سنة ، فيخفّف عددهم ، ويحثّ نشاطهم ، ويجدّد حقدهم على جيرانهم ، فيثأرون افراداً او جملة ، كلما سنحت الفرصة للثأر . . .

وهكذا قضينا ربع ساعة بين الاستغراب ، والاعجاب ، وخوف الانقلاب ، حتى وصلنا الى الاطلال ومنها ما اندثر تماماً فتحوّل الى هضاب مسطّحة تدلّ على مواقع الابراج التي كانت تدور باسوار الرافقة ، فتحيط من الجنوب ومن الغرب بالمدينة الحالية ؛ ومنها ما ظلّ قائماً كباب بغداد (الرسم ٩) المرتفع على تلك الرمال ، وقد اكل الزمان من قواعده ، فبدا كأنه موضوع ، دون اساس ، ربما ينقل الى مكان آخر . يقع الباب في الزاوية الجنوبية الشرقية من « الرافقة » وهو آخر اثر يدلّ على السور ، مبنيّ بالآجرّ كسائر ابنية المدينة ، الخلوّ المنطقة من الحجر . اما طرازه الهندسي فجزري متأثر ، بعضَ الشيء ، بالاثر العراقي الفارسي ؛ وذلك في اقواس القناطر المتكسرة خاصّةً . وان يكن فيه ما يُعجب ، فهو تلك الحنايا الزخرفية في القسمَ الاعلى ، وما ابداه البنّاؤون من حذق في مزاوجة قطع الآجرّ الصغيرة ، والتفنن في تنضيدها وتأليفها حتى اخرجوا منها غاية ما يمكن الوصول اليه في مثل هذه الموادّ الضئيلة من روعة هندسية وجمال بنائي .

وكذلك القول عن بناء الجامع الكبير ، الذي بناه نورالدين سنة ١١٦٦ ،

ممتدًا على ١١٠ امتار في ٦٥ مترًا . ولم يبقَ منه اليوم الا حائط ذو احدى عشرة قنطرة (الرسم ١٠) ، وتلك المنارة العجيبة باستدارتها وارتفاعها . تركنا السائق ، في ساحة الجامع ، نتأمل دقة البناء وشدة تماسك الآجرّ ، ونعجب بالمنارة (الرسم ١١) فنهمّ بالصعود اليها ، ثم يثنينا ارتفاع المدخل وقصر الوقت، فنكتفي بالثناء العريض على المهندس المجهول الذي توفق الى استخدام آجرّه على هذا الاسلوب الجميل ، فدلّ على سعة مداركه ، وبعد نظره ، وحسن تقديره لموادّ بنائه .

وهناك بقايا قصر لعلّه قصر الرشيد ، يشير بايوانه المتداعي الى عظمته الاصلية . ثم سلسلة من المرتفعات ، او التلال غير الطبيعية ، ممتدةً على مئات الامتار ، تدلّ على ما تحتها من بقايا بنايات تعاقبت ، في المدن المتتابعة على تلك البقعة ، من نيقيفوريوم الى الرقة الحالية ، ولا يبرز منها ما يصلح معلماً لروّاد التاريخ . انما هناك ، تحت الرمال والانقاض ، مدنيات متعدّدة ، تتمنى ان تكشف عنها معاول الحفّارين ، فيظهرها علماء الآثار في تطوّرها وازدهارها وانحطاطها ، منيرين حقبة مهمّة في تاريخنا المتشعّب .

وطالت التمنيات، على قصر الوقت، تغذيها الخيالات التاريخية من اموية وعباسية وحمدانية ورومية تأهل ذاك القفر الصامت ، وتنعش تلك الآثار الشاخصة... ولكن هذه الشمس تجنح الى المغيب فتذكرنا بموعدنا الليلة في الشهباء ، والسائق لا يعود من رحلته . درنا حول السيارة مرّات ننتش عيثاً عن الزمور ...ثم صعدنا كل منا على تلّة نصيح في الجهات الاربع . واذا به يهرول نابتاً من احدى الحفر ، منحني الظهر ، مُثقل السراويل بعدد ضخم من القطع الخزفية الزرقاء المزرّزة بالاسود المذهّب ، فألقاها امامنا في السيارة وصاح منتصرًا : هذا افضل ما في الرقة ، يطلبه السياح دائمًا ، ويفتش عنه البدو في هذه الحفائر كلها . فأضفنا هذه الاسلاب الجديدة الى ما جمعناه من ظرّان ابي حريرة ، وجبس الرصافة اللمّاع . ولما سألناه عن خلوّ سيارته من الزمور ، مادحينه على تطبيقه هذا القانون البيروتي الحديث ، اغرب في قهقهة مقصودة ، وصاح:

ــ واي حاجة بي الى زَمّور . واهالي البلدة يسمعون حسّ سيارتي على مسافة كيلومتر فيخلون لي الطريق بكامله !

وهكذا كان، عندما طار بنا ، على اقصى ما يمكنه من السرعة ، في تلك الآكام المتوالية صعودًا وهبوطًا، وبين تلك الازقة الملتوية ، لا ينتبه لعقبة، ولا يحسّ بارتطام ، ولا يسمع لاحتجاج ، حتى حطّ بنا على ضفة الفرات.

وكان السرجان يساوره القلق، فيستكشف ورجاله الضفة القريبة،من مركز قيادة الجيش الى اطراف الاطلال ، وقد أخر البريد نحو الساعة ، فاخذ يشعر بالمسؤولية . حتى اذا وصلنا ، انبسطت اساريره ، وتطلق وجهه باطلاعه على اذن الكابيتين ، وما هو ان اندفع الزورق في عرض النهر ، حتى حُلّت عقدة لسانه ، فعوضنا من صمته السابق ... واذا هو شركسي الاصل ، متزوج من نحو عشر سنوات ، له اربعة اولاد ؛ وقد تطوّع في الجيش الفرنسوي منذ خمس عشرة سنة ، ولولا قلة المامه بالعلوم ، ولولا سوء حظه خاصّة،لكان الآن برتبة اعلى . لكنه قانع بمركزه ... ولكنه سوف يتركه قريباً فيطلب احالته على التقاعد . فيصبح على شيء من الحريّة يشتغل بما يشاء ، ويستثمر ما سوف يتناوله من معاش قليل . وهو ميّال الى الزراعة في تلك الأرض الخصبة . ولكن الأمن مفقود ، والبدو لا يعفّون عن شيء في غزواتهم ، وسائر السكّان لا يقلون عن البدو فظاعة وهمجية . هذا رجل قتل اخاه لخلاف بسيط ؛ وهذا شاب ذبح اخته لشذوذ رآه في سلوكها،وصاح: « اذبح تربح » وهذا آخر احرق بيت قريبه نكايةً وانتقاماً . ولولا وجود الجيش لكانت المعيشة مستحيلة ... هكذا تتتابع الحياة في تلك المنطقة ، وهكذا يتتابع حديث السرجان بالفرنسوية والعربية ممزوجتين؛ وهكذا تتتابع امواج النهر متدفقةً مدةً طويلة. ونحن كأننا لا نزال في مكاننا . . . ذاك أنّا سرنا مع التيار في مجيئنا ، فلم تمض الدقائق المعدودة الّا ونحن على ضفة الرقة . امّا الآن فالتيار يعاكسنا ، والجنود الستة يجذفون بمنتهى قواهم ، والدقائق تمرّ سراعاً ولا نتحقق تقدّمنا البطيء الا بالزبد المتطاير عن جانبي الحيزوم . هذا اذا لم ينشب الحيزوم بالرمال ، كما حصل لنا في منتصف النهر ، فارتججنا مترنّحين ، وغطس البحّارة يجرّون الزورق بالحبال

حتى تفلّتنا ، وبلى ثيابنا وشمورنا دفقات من الماء على لطخات من الرمل والغبار ...

وصلنا الضفة بعد نصف ساعة ، وكرنيك يقلقه الانتظار . طوراً يكشف ساعته ، وتارةً يكشف الافق الغربي مقدّراً المسافة بين الشمس والبحر ، والرقة والشهباء ، حتى قال : نكون في حلب الساعة التاسعة .

ولا يسل القارئ عن السرعة الهائلة التي عدنا بها ، سرعة التعب من رحلة طويلة وضعتنا على طريق الراحة ؛ وسرعة التائه في القفر دلتّه على المكان المأهول . وان ننسَ فلا ننسى ما كان يتقلّب على عيوننا من خيالات فسيحة في جلال الفرات وسهوله المتباعدة تغمرها سكينة المساء وحمرة الغروب ، وبنفسج الشفق ، الى ان يبدو القمر . وكأنها — في جرود صخورها الكلسية اللينة ، ونشزب نباتها الهشّ لا يتمايل ولا يئنّ ، وصمت مياهها الزاحفة عن بعد بلا حراك ، وذاك السكون الشامل مفوحاً عليه بياض البدر الازهر الغريب اللمس — كأنها تلك المناظر الباردة المغلّفة بالصقيع التي يعرضها الفلكيون صوراً لمناطق القمر الجامدة ، بل كأنها تلك الرسوم الساذجة التي يعرضها الفنانون مشاهدَ للخليقة في اول عهدها ...

ثم تنعطف السيارة بلا رفق الى السهول الغربية ، واذا بهذه المناظر آخر ما يعلق باذهاننا من تلك الرحلة القصيرة المدّة ، المترامية الاطراف الى حيث يجتمع الفنّ والادب والتاريخ !